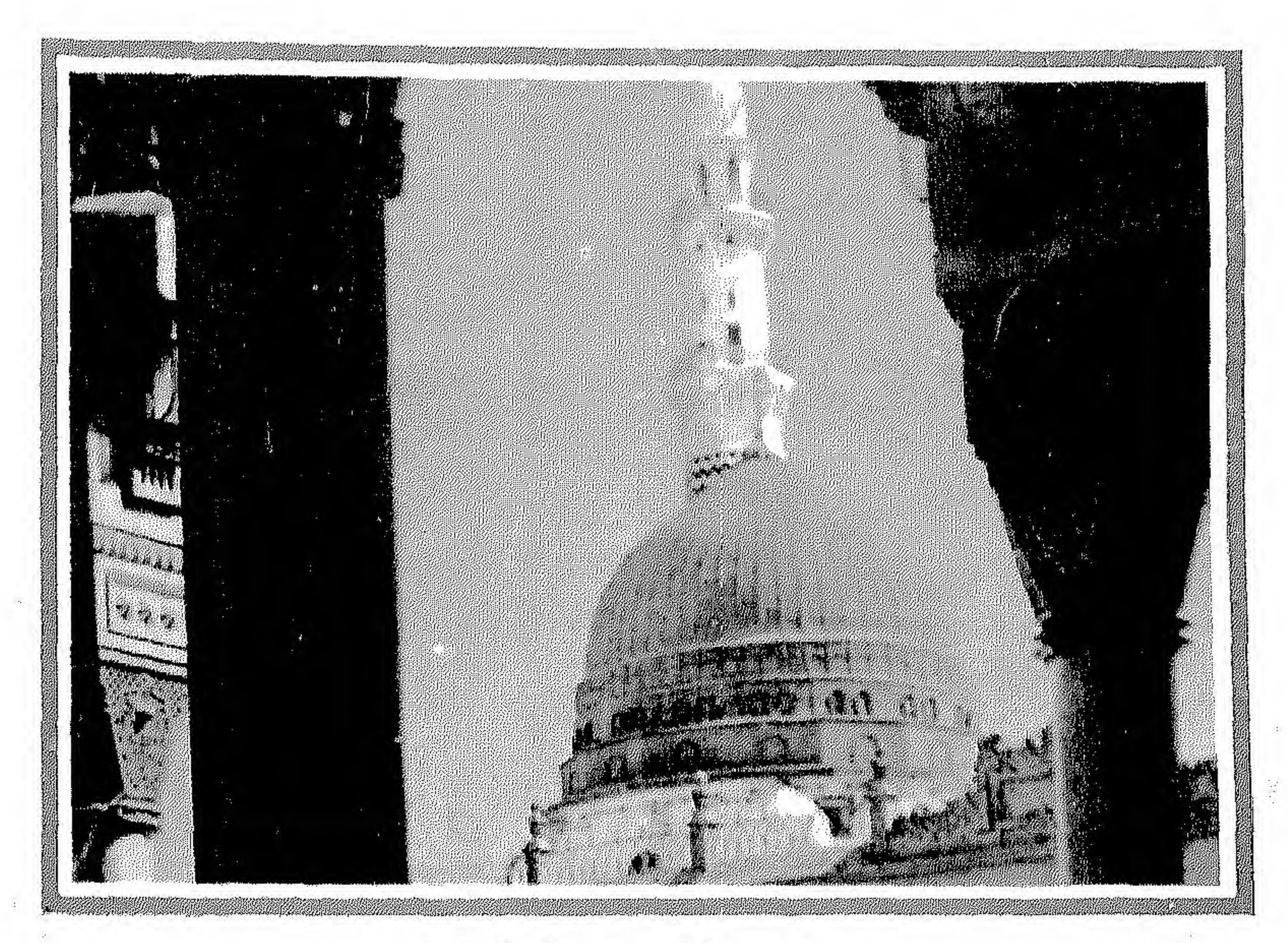


في رياض السيرة النبوية

العهد المدني

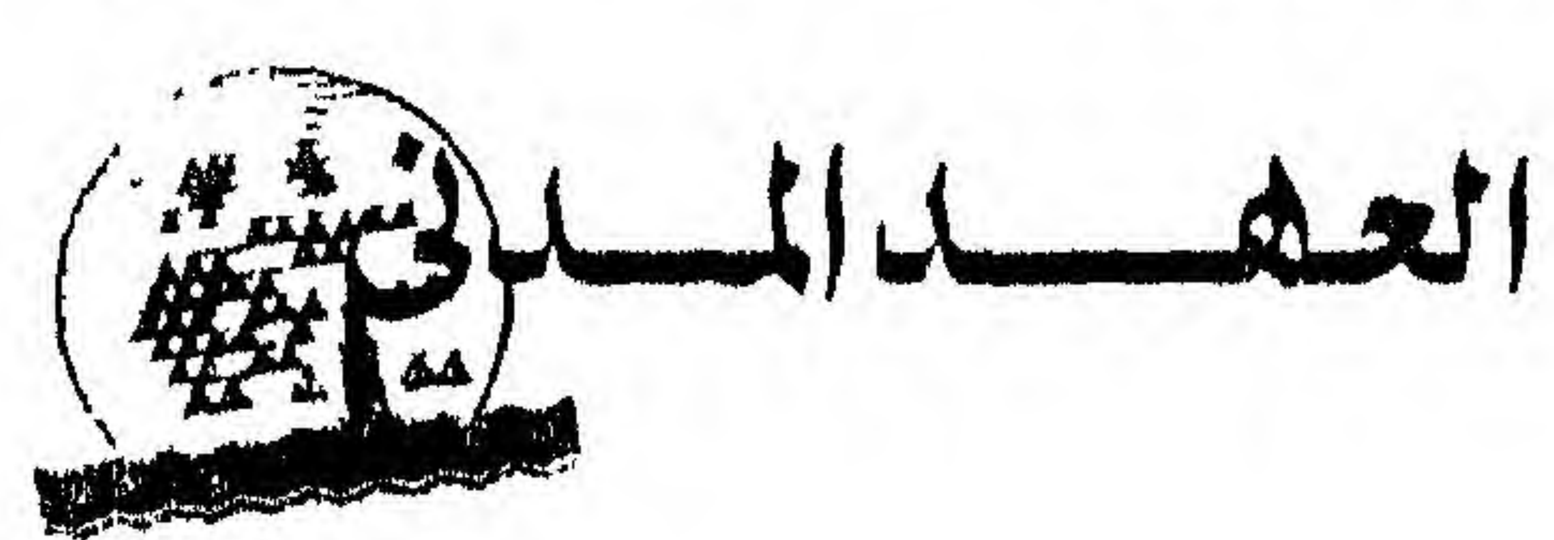
بقلم

الدكتور أحمد عمر هاشم



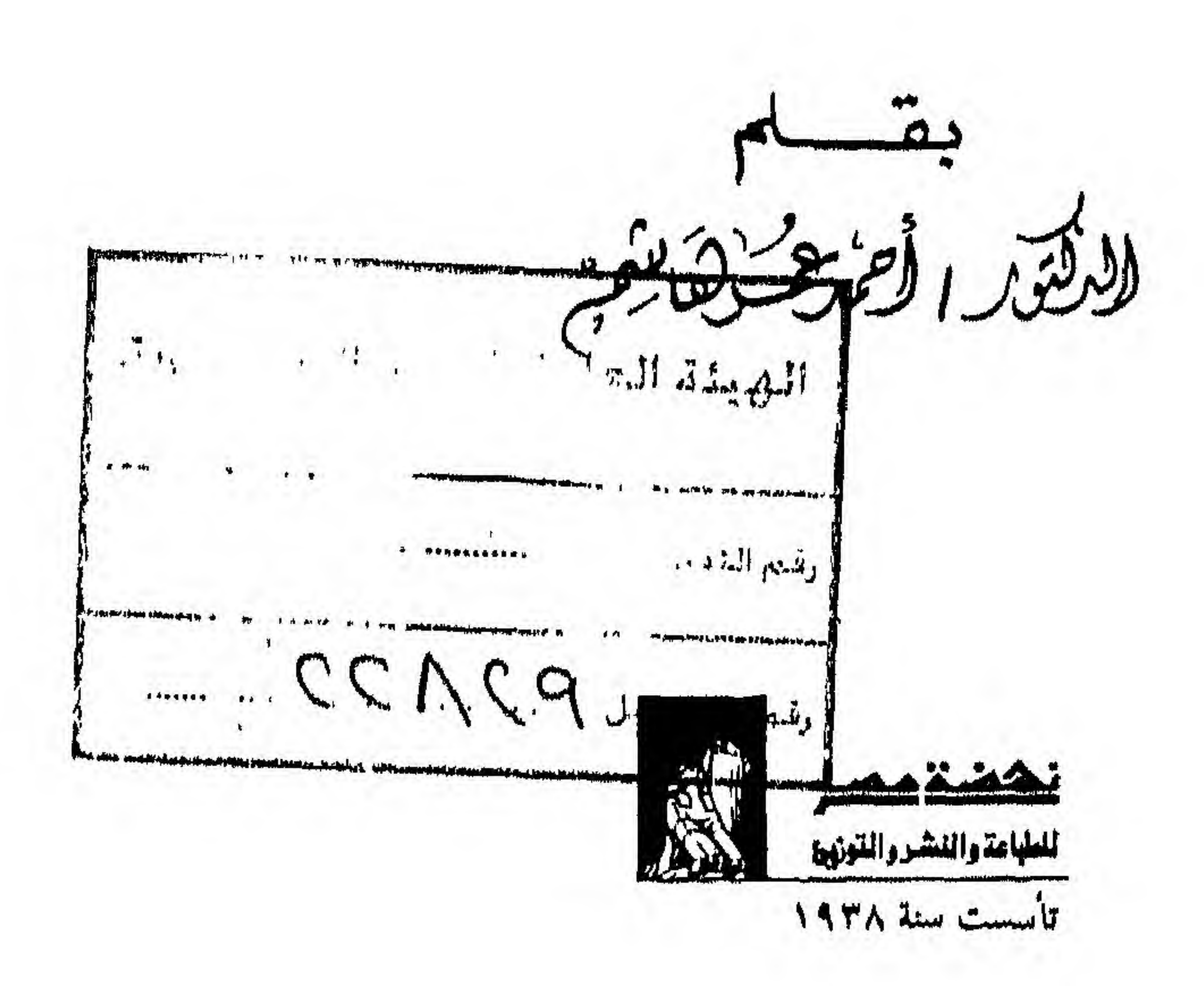
في رياض السيرة النبوية

العهد المدني



بقلم

الدكتور أحمد عمر هاشم



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
تأسست سنة ١٩٣٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعـد

فهذا هو الجزء الثانى من كتابنا : (فى رياض السيرة النبوية) وهو عن العهد المدنى ، تناولت فيه أحداث هذا العهد ومافيه من وقائع وغزوات ، مستمدا مادته من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ومن مراجع السيرة النبوية ، مركزا فيه على صحة الوقائع وتوثيق الأحاديث ، وبيان الدروس المستفادة داعيا الله تعالى أن تكون هذه السطور هداية ونورًا لكل قارئ ، وأن يشفّع فينا خاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام .

رب اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين ،

المؤلف

د. أحمد عمر هاشم

استقبال أهل المدينة للرسول (ﷺ)

لقد أخذت الرحلة ثمانية أيام ، وانتظر أهلُ المدينة رسولَ الله (ﷺ) فى لهفة وشوق ، ولما مرت الفترة اللازمة للرحلة ولم يصل بعد ازدادت لهفتهم ، وصاروا يصعدون الأماكن العالية وينظرون إلى بعيد ، حتى طال بهم الانتظار فرجعوا إلى بيوتهم ، فإذا رجل من اليهود يصيح على أطم بأعلى صوته : يا بنى قيلة هذا صاحبكم قد جاء ، فخرجوا ، فإذا رسول الله (ﷺ) وأصحابه الثلاثة ، وإذا الفرحة تسود الجميع ، وتصعد ذوات الخدود إلى أعلى المنازل وتنساب الغبطة من كل القلوب عازفة أجلى الأناشيد وأرقها .

وكان رسول الله (ﷺ) ، قد نزل من قبل فى قباء عند عمرو بن عوف ، ومكث بها أربعة أيام ، أسَّس فيها مسجد قباء الذى وصفه « الله » بقوله :

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ ﴾[1]

وفى قباء لحق على بن أبى طالب (رضى الله عنه) برسول الله (ﷺ)

---

(١) التوبة : ١٠٨ .

بعد أن قام برد الودائع إلى أهلها ، ودخل المدينة فى الموكب النبوى الشريف ، وخرج رسول الله (ﷺ) من قباء يوم الجمعة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاَّها فى المسجد الذى فى بطن الوادى وهى أول جمعة أدَّاها (ﷺ) بالمدينة . ومر الموكب النبوى ، وكلما مر على دار من دور الأنصار دعوه للنزول عندهم ، وأخذوا بزمام ناقته ، فيقول لهم : « **دَعُوهَا فإنَّها مَأْمُورَةٌ** » وظلت الناقة سائرة حتى بركت أمام دار أبى أيوب الأنصارى وفى محلات أخواله بنى النجار ، فقال رسول الله (ﷺ) : « **هَهُنَا المنزِلُ إن شَاءَ الله** » وتلا قوله تعالى .

﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

فحمل أبو أيوب حمل رسول الله (ﷺ) ووضعه فى بيته ، وكان المكان الذى نزل فيه لسهل وسهيل ابنَى عمرو ، وهما يتيمان ، فاتخذ منه الرسول (ﷺ) مسجدًا بعد دفع العوض لصاحبيه .

---

(١) المؤمنون : ٢٩ .

المَسجِدُ النَّبَوى

منذ وصل الرسول (ﷺ) إلى المدينة ابتاع المكان الذى بركت فيه ناقته ، وكان مربدًا للتمر يملكه الغلامان (سهل وسهيل) فاشتراه وأبى أن يقبله هبة ، وأمر أن تُسَوَّى ما فيه من حفر ، ويُقطَعَ ما به من نخل وأُصْلِحَت أرضه ، وبدأ فى بناء المسجد من اللبن - الطوب الأخضر - وجانبا الباب من الحجارة ، وسقفه من الجريد ، وأعمدته من جذوع النخل ، وكان ارتفاعه لا يزيد عن قامة الإنسان إلاَّ اليسير ، واشترك معهم الرسول (ﷺ) فى البناء ، تقوية للروح المعنوية ، وبيانا لمنزلة المساجد ، وقيمة العمل وشرفه وكانوا يُرَوِّحون عن أنفسهم عناء العمل بترديد بعض الشعر قائلين :

اللَّهم لاَ عَيشَ إلاَّ عَيْش الآخِرَة
فَارحَمِ الأَنْصَارَ وَالمهاجِرَة

ويرتجز بعضهم الشعر فى حماس حين يرى الرسول (ﷺ) يأبى أن يتميز على واحد منهم ، ويقوم بالعمل كواحد منهم يقول بعضهم :

لَئِن قَعَدنَا وَالنَّبِىُّ يَعْمَلُ
لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ المضَلَّلُ

وكان المسجد أنئذٍ مرتكز الصلة الكبرى ، بين الخلق وخالقهم ففيه تؤدى الصلاة ويؤذن بالتوحيد . والصلة بين الأفراد والجماعات ، ومنه تنبثق مبادىء الصبر والمرحمة ، والأخلاق الرشيدة ، وكان المسجد بجانب ذلك ملتقى لجميع المسلمين ، تتم فيه مجالس الشورى ، والفصل فى القضايا وشئون التجارة ، وما إلى ذلك ، وقد جاء فى فضل المسجد النبوى أحاديث منها : ما روى فى الصحيحين عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : « **لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِى هَذَا وَالْمسجِد الحَرَامِ وَمَسْجِدِ بَيْتِ المَقْدِس** » ، كما روى أيضا : « **صَلاَةٌ فِى مَسْجِدى هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلاَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ** » وقوله (ﷺ) : « **مَا بَيْنَ بَيْتِى ومِنْبَرِى رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الَجَنَّةِ وَمِنْبَرِى عَلَى حَوضِى** » .

المـؤاخـــــاة

أما الخطوة التالية بعد ذلك فهى المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض وبينهم وبين الأنصار ، فالمهاجرون تركوا أوطانهم وديارهم وأموالهم مقبلين على عقيدتهم ، مهاجرين فى سبيل «الله» ورسوله ، والأنصار تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ، ولقد أحس الأنصار بحاجة أخوانهم المهاجرين فآثروهم وآووهم ، وفضلوهم على أنفسهم ، مهما كانت حاجتهم ووصلت هذه المؤاخاة درجة أصبحوا بها يتوارثون بعد الممات ، إلى أن قال تعالى :

﴿ وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[1].

فرجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه . وقد أظهر الأنصار من ضروب السماحة والإخاء مع أخوانهم ما جعلهم أهلا لوصف القرآن لهم :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2]

---

(١) الأنفال : ٧٥ .

(٢) الحشر : ٩ .

حتى لَيُرْوَى أن سعد بن الربيع وهو من الأنصار وقد آخى الرسول (ﷺ) بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ، كان أن شاطره ماله ، فأبى عبد الرحمن وسأل عن السوق وراح يشتغل بالتجارة فى سوق المدينة حتى نما ماله ، وهكذا رفض عبد الرحمن أن يعيش عالة على غيره ، وأبى إلا أن يأكل من عمل يده ، تمجيدا لشرف العمل ، وتقديرا لكرامة المسلم ، وهكذا ربط الرسول (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار حتى أصبحت كل أسرة مرتبطة بأسر كثيرة بسبب هذه المؤاخاة ، ونسى الجميع كل الصلات الأخرى إلا هذه الصلة الجديدة حيث أصبحوا بنعمة «الله» إخوانا ، فلم يعد يظهر تعدد القبائل ، وما له من آثار الفُرقَةِ والاختلاف ، وإنما أصبح مجتمع المدينة مسلمين وغير مسلمين مجتمعا واحدًا. ولم يبق أمام الرسول (ﷺ) إلا خطوة واحدة، فيها تتحقق الوحدة الوطنية ، ويتم التحالف بين جميع سكان المدينة من المسلمين وغيرهم ، ويعطى لهم أروع الأمثلة ، وأنبل الدروس فى سماحة الإسلام وسمو مبادئه ، حتى يبصر أتباع الأديان الأخرى نور الدين الإسلامى ورحمته بالإنسانية كلها على أساس من حرية العقيدة ، فكانت المعاهدة التى أبرمها (ﷺ) بين المسلمين وغيرهم .

المُعَاهَدَة

أصبح سكان المدينة بعد الهجرة ، والمؤاخاة يمثلون ثلاثة أنواع :

١ - المسلمون .

٢ - اليهود من بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع .

٣ - العرب الذين لم يعتنقوا الإسلام .

فأراد رسول الله (ﷺ) أن يوحد بينهم جميعا ، ويربط بين القلوب حتى تسود روح الإسلام وسماحته فعقد هذه المعاهدة وقامت بها أسمى المبادىء الإنسانية التى تكفل حقوق الناس جميعا ، من حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة المدينة ، ومحاربة الظلم والعدوان .. ومما عالجته هذه المعاهدة من مبادىء أن من حق الجماعة معاقبة المفسد ، وأن يتعاون سكان المدينة ، ويردوا أى عدوان يوجَّه إليهم ، وأن الرئاسة العامة تكون للرسول (ﷺ) ، كما نصَّت على جميع الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التى تقوم على أساسها دعائم المجتمع الإسلامى الجديد ، **تقوم السياسة فيه على الشورى** ، كما قال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [1]

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [2]

---

(١) آل عمران : ١٥٩ . (٢) الشورى : ٣٨ .

ودعائم اقتصادية تقضى بالتعاون الاقتصادى التام كما جاء فى الحديث **«مَا آمَنَ بِى مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُه جَائِعٌ إلى جَنْبِهِ وهو يَعْلَمُ به»**[١] .

ودعائم اجتماعية تسود فيها المساواة بين الناس ، فلا فضل إلا بالتقوى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[٢]

فكان ذلك نواة للدولة الإسلامية الكبرى التى ستكون خير أمة أخرجت للناس .

---

(١) رواه البزار والطبرانى

(٢) الحجرات : ١٣ .

دُروسٌ مِنَّ الهِجرَة

وقد أفاءت الهجرة النبوية على المحيط الإسلامى دروسا كريمة كان لها أكبر الأثر فى توجيه الحياة إلى الرشد والسداد ولما كان للهجرة أثرها الجليل فقد اتخذت مبدأ للتاريخ فقد كتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر (رضى الله عنهما) : تأتِينَا مِنكَ كُتُبٌ لَيسَ لها تَارِيخٌ ، فجمع عمر (رضى الله عنه) الناس فقال بعضهم : **أَرِّخْ بِالمْبعث** ، وقال بعضهم : **أَرِّخْ بالهجرة** ، فقال عمر : **الهِجْرَةُ فَرَّقَتْ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ فَأَرِّخُوا بِهَا** .. وابتدأ التاريخ منها بالمحرم ، لأنه الشهر الذى ابتدأ فيه العزم والتصميم على الهجرة بعد البيعة وذلك فى المحرم .

إذًا فإن سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لم يقطع بالرأى من اتخاذ الهجرة مبدأ للتاريخ إلا بعد المشاورة وأخذ الآراء ، حتى قيل إن البعض أشار أن يكتب بتاريخ الروم فقيل : **إنَّ الرُّومَ يَطُولُ تَارِيُخُهم يَكْتُبونَ مِن ذِى القَرنَينِ** ، وأشار البعض بتاريخ فارس فقيل : **إنَّ فَارِسَ كُلَّمَا قَامَ مُلِكٌ طَبَعَ مَن كَانَ قَبلَهُ** ، فاجتمع الرأى كما سبق على الهجرة .. ومعلوم أن للتاريخ أهمية عظيمة فى حياة الناس وبه تعرف مواليد الرواة ووفياتهم وبه يمكن الوقوف على صدق الرواة وعدمه ومعرفة الأعمار وما إلى ذلك من الفوائد . ولنمر سريعا على بقية دروس الهجرة المباركة ففيها تبصرة وعبرة لأولى الأبصار ، ولقد

كان من أهم الدروس التربوية : الفدائية ، والتضحية التى قام بها أعظم نفر مثلوا أروع نماذج المجتمع الإسلامى فى جهاده وفدائه وهؤلاء هم :

١ - **أبو بكر الصديق (رضى الله عنه)** الذى مثل رجولة الرجل والصديق .

٢ - **على بن أبى طالب (رضى الله عنه)** الذى ضرب مثلا بشبابه ظل أسوة على مر العصور لجميع الشباب .

٣ - **أسماء بنت أبى بكر (رضى الله عنها)** التى قامت بدور المرأة المسلمة ، وأدت واجب التضحية على أعظم ما يكون .

٤ - **عبد الله بن أبى بكر (رضى الله عنه)** الذى قام بدور الاستطلاع ، فجمع أخبار الأعداء وهى مهمة من أخطر ما يكون : إنها (المخابرات) فى أشرف قصد وأسمى غاية «لله» ولرسوله .

٥ - **عامر بن فهيرة (رضى الله عنه)** مولى أبى بكر الذى مثل الجندية الإسلامية فى أسمى معانيها وأدق صورها ، حيث قام بتوفير الأمان ، فرعى غنم الصديق ليروح إلى الغار فى الليل ليأخذا حاجتهما منها ، وليعفى بالغنم آثار المشى إلى الغار فيضل عنهما الأعداء .

ومن دروس الهجرة كذلك الثقة بـ «الله» وصدق الإيمان به ،

وما له من أثر فى حياة المسلم يجعله لا يخشى إلا «الله» كما قال (ﷺ) لأبى بكر حين قال له : **لَو نظَرَ أحدُهُم إلى مَوضِع قَدَميهِ لَرآنا** قال : «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا ، لاَ تَحْزَنْ إنَّ الله مَعْنَا** » وكذلك كان من تعاليم الهجرة بيان ثمرة الصبر ، وأن مع العسر يسرا ، وفضيلة الأنصار وإيثارهم لإخوانهم من المهاجرين نتيجة مؤاخاة الرسول (ﷺ) بينهم فأثمرت هذه المؤاخاة معانى إسلامية رائعة وكونت مجتمعا مؤمنا يشرق بمكارم الأخلاق .

فى الهجـرَةِ نصـرٌ وَفَتـح

ولقد وضح «الله» تعالى أنه مع رسوله (ﷺ) بالنصر والتأييد إن لم ينصروه فسينصره « الله » الذى نصره من قبل فى وقت أشد من هذا وذلك عندما تسبب الذين كفروا فى خروجه فأذن «الله» تعالى له حين هموا بإخراجه وائتمروا عليه وقرروا أن يتخلصوا منه فأطلعه « الله » على مؤامرتهم وأوحى إليه بالخروج هو وأبو بكر الصديق دون جيش أو سلاح ، وكان القوم على أثرهما ، وأبو بكر يخشى على رسول الله (ﷺ) ويقول : **لَو نَظَر أَحَدُهُم إلى مَوضِعِ قَدَمَيهِ لأَبْصَرَنا** .. وقد أنزل «الله» سكينة على قلب رسوله (ﷺ) فقال : **«يا أبا بكر مَا ظَنُّكَ باثنينِ الله ثَالِثهما لاَ تَحَزن .. إنَّ الله مَعَنَا»** فكان النصر المؤزر بجنود من عند «الله» تعالى لم يرها الناس وكانت الهزيمة للكافرين بالذلة والصغار ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة «الله» عالية منتصرة قوية والله عزيز يعز أولياءه فلا يذلون حكيم يقدر النصر فى جنبه **وَأَيَّدَهُ بجُنودٍ لَم يَرَهَا أَعداؤُهُ مِنَ الكُفَّارِ** وهم الملائكة يوم بدر والأحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم «الله» ليحرسوه فى الغار لذا كان حديث القرآن عن الهجرة حديث النصر :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾[1]

وإن حادث الهجرة النبوية لمن أروع الأحداث الشاهقة فى تاريخ الإسلام فقد انتصرت به أمة وفتحت له دنيا ، وتواكبت على مساره أجيال ولئن حفت به مخاطر مهولة وتلاحقت عبر أيامه ظلمات جامدة فقد كانت بوارق الأمل تشرق فوق صحراء الزمن وتنبثق بين صخور الظلام رافعة شعارها الأخضر : **لاَ تحزَن إنَّ «الله» مَعنَا** . ولقد عاشت الدعوة الإسلامية فترة ما قبل الهجرة على أشواك من الحياة الجافة تحيط بها ضلالة الوثنية الرعناء وجهالة الشرك العنيد ، وانطلقت من هذه الظلمات المتراكمة عداوات وإحن ، أخذت طريقها فى مطاردة الدعوة والداعية ، ومحاولة الإجهاز عليهما فى وقت واحد ، واتخذت قريش كل ألوان الأذى والعنت لتصرف الناس عن هذه الدعوة وتطفىء نورها بينهم ، وذاق المستضعفون من هذا الاضطهاد ما ذاقوا إلا أنهم كانوا يستعذبون العذاب فى سبيل «الله» وكلهم يقين وثقة أن ليل التآمر والغدر لابد أن يسفر عن نصر قريب فكان المؤمنون متمثلين قول ربهم سبحانه وتعالى :

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا

---

(١) التوبة : ٤٠ .

يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[١]

ولقد بث الرسول (ﷺ) فى أصحابه روح الإيمان ، والصبر فى الأزمات يقول خباب بن الأرت : شكونا إلى الرسول (ﷺ) وهو متوسِّد برده فى ظل الكعبة فقلنا له : **أَلاَ تَستَنصِرُ لَنا ؟** فقال عليه الصلاة والسلام : **كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُم يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَ «الله» لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَنْ صَنْعَاءَ إِلى حَضْرَمَوت لاَ يَخَافُ إِلاَّ «الله» عَزَّ وَجَلَّ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنكُمْ تَستَعْجِلُونَ .**

هذا والهجرة فى مفهومها الصحيح لم تكن فرارا ضعيفا من مطاردة المشركين لتختفى الدعوة وأصحابها عن تلك العيون المحدقة ، وإنما كانت انتقالا ببذور الدعوة إلى تربة صالحة يخرج نباتها بإذن ربه ، واتجاها إلى مناخ ملائم تترعرع فيه لتؤتى أكلها كل حين .

والحرب النفسية والمادية التى شنها أعداء الإسلام على الدعوة لم يكن القصد منها القضاء فقط على الداعية والمؤمنين التابعين له ، وإنما

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

كان أهم ما يعنيهم يومها أن تنتصر الوثنية وجندها ، وتنهزم هذه الدعوة الجديدة فلا يبرق لها شعاع بين أنحاء البلاد ، ولكنهم لم يستطيعوا إطفاء نورها ، لأن « الله » سبحانه يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وفى مكرهم ومؤامراتهم لم يصلوا إلى شىء ، لأن رب الدعوة حارس لها ، ومؤيد رسوله :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]

لذا كان تمسك أصحاب الرسول (ﷺ) بدعوتهم وتغلغلها فى دمائهم وأرواحهم انتصارا للدعوة ، مهما بالغ الأعداء فى التنكيل بهم .

وإن أمثلة الإيمان والشجاعة التى ضربها أمثال بلال وآل ياسر وغيرهم إنما كانت أنماطا صادقة الرؤى لانتصار الدعوة لدى هؤلاء المؤمنين المخلصين حتى ولو انتهى بهم الأمر إلى القتل أو الموت خلال تمسكهم بدينهم وهجرتهم بدعوتهم ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[2]

هذا وقد تحدث القرآن عن الهجرة حديث الانتصار قال تعالى :

---

(١) الأنفال : ٣٠ .

(٢) الحج : ٥٨ .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

وقد أثمرت المؤاخاة التى أبرمها رسول الله (ﷺ) فكونت أساسا لأعظم مجتمع مثالى تألقت فيه معانى الحب والإخاء ، وأشرقت بين جنباته بطولة العقيدة التى حققت النصر فى الغزوات وتحقق على يديها الفتح المبين .

لا هجرة بعد الفتح :

ولنختم حديثنا عن الهجرة بهذا الحديث الشريف : عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى (ﷺ) قال يوم الفتح : « **لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِن جِهَادٌ وَنيةٌ ، وإذا اسْتُنْفِرتُمْ فانْفِرُوا** » .

كانت الهجرة فى مبدأ أمر الإسلام فرضا على من أسلم ، لأن عدد المسلمين بالمدينة قليل ، ولأن الحاجة إلى اجتماعهم وتوحدهم ضرورية

---

(١) التوبة : ٤٠ .

لتقوية جانبهم ، ونصرة وأمنا لهم ، حتى يسلموا من أذى قومهم من الكفار حيث كانوا يذيقونهم العذاب ويستغلون ضعف قوتهم فى محاولة إرجاعهم عن الدين ، ونزل فيهم قول « الله » تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (١)

وبعد أن فتح «الله» تعالى على رسوله (ﷺ) مكة المكرمة التى أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا «الله» ، وجاء نصر «الله» والفتح ودخل الناس فى دين «الله» أفوجا سقط فرض الهجرة ، وبقى فرض الجهاد فى سبيل «الله» والنية المخلصة ، إذا دهم العدو البلاد .

وقد بقى من أنواع الهجرة : هجرة من أسلم فى دار الكفر واستطاع أن يخرج مهاجرا بعقيدته وعبادته .

فالمفارقة إنما تكون بسببين : الأول : **الجهاد** . والثانى : **النيّةُ الصَّالحةُ** ، كالفرار من دار الكفر والخروج فى طلب العلم ، والفرار بالدين من الفتن مما لم يستطع الإنسان تحصيله بالجهاد والنية الصالحة ، ثم وجه الرسول (ﷺ) المسلمين إلى وجوب الاستنفار فى سبيل « الله » ، إذا طلب ذلك أولوا الأمر « **وإذا استنفرتم فانفروا** » سواء كان ذلك للجهاد أو نحوه من الأعمال الصالحة .

---

(١) النساء : ٩٧ .

أول ظعينة قدمت المدينة المنورة

للرعيل الأول مواقف إيمانية لا نظير لها فى تاريخ البشر فهى تحمل مثلا عالية لدنيا الناس ، وتضىء بمشاعلها كل الدروب أمام قافلة الحياة .

وترى كل الأجيال : كيف صنع الإيمان هؤلاء الرجال ..

وإن حادث الهجرة النبوية من أهم الحوادث الإسلامية المشهورة .. والمذكورة على كل الألسنة وعبر العديد من صفحات التاريخ .

بيد أن من بين هذه الصفحات . سطورا مشرفة بإيمان أصحابها الذين ضحوا بكل نفيس وغال فى سبيل عقيدتهم ، حبا فى «الله» وفى رسوله (ﷺ) ..

وتلك السطور جديرة بالوقوف عندها ، وبتأمل ما احتوته من عبر ودروس . فمنذ أعلن رسول الله (ﷺ) الهجرة إلى المدينة المنورة ، وأصدر الإذن لأصحابه ، منذ ذلك الحين وشوق المسلمين جارف إلى طيبة المباركة .. والقلوب النقية التى عمرها الإيمان ترتعش فرحة وغبطة وحبورا ، وتحركها عقيدتها إلى هذا الموطن الحبيب الذى احتضن الدعوة ، ورحب بها ، وكان مناخا خصبا آتى ثماره بإذن «الله» .

لقد بايع من قبل أهلها رسولهم (ﷺ) ، وفتحوا لدعوته قلوبهم . قبل دورهم وعند قدومه لهم استقبلوه على شوق .. استقبال الظمآن للماء البارد وهتفوا بترحابه وبحُبِّه . جميعا شيبا وشبانا .. ورجالا ونساء . وأصبحت المدينة مهرجانا من الفرحة والبشر والنور والهدى .

ولا حصر لتعداد ما هو معروف من حبهم وإيثارهم الذى كان مضرب الأمثال ، وأخوّتهم التى كانت من أقوى الروابط فى الوجود ، ولكن حسبنا أن نقف مع مشهد واحد فقط من المشاهد الأولى للهجرة . لنرقب عن كثب ونشاهد كيف كان تسابق المسلمين على الهجرة . وكيف ضحّوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ووطنهم وكل عزيز عليهم فى سبيل « الله » ورسوله ، فإن فى الوقوف على ذلك عبرا للمسلمين. ودروسا تطلعنا على ما صنعه الإيمان .

ولم تكن الهجرة مع ما فيها من المخاطر الشديدة وتجشم الصعاب وفراق الوطن والولد والأهل والمال لم تكن مقصورة على الرجال فحسب.. وإنما كان للنساء المسلمات دورهن العظيم فيها . لقد كان أول المهاجرين أبو سلمة .. وكانت معه زوجه أم سلمة .. وهى أول من خرج مهاجرا من النساء ، ولولا أن أهلها منعوها لكانت أول من وصلت المدينة فهى كما قال موسى بن عقبة أول ظعينة . والظعينة هى المرأة تركب البعير .

وقال ابن عبد البر : أول ظعينة ، قدمت المدينة هى ليلى بنت أبى حثمة زوج عامر بن ربيعة حليف بنى عدى بن كعب . وإنما بنى ابن عبد البر رأيه هذا على أساس أن ليلى أول من وصلت المدينة من النساء ، وأما موسى بن عقبة فرأى أن أول ظعينة هى أم سلمة لأنها أول مهاجرة خرجت من النساء . فماذا كان من نبأ السيدة أم سلمة (رضى الله عنها) فى حادث الهجرة ؟!

لقد كان زوجها أبو سلمة أول مهاجر . إنه هاجر قبل بيعة العقبة الثانية بعام . فقد كان الإذن بالهجرة عقب بيعة العقبة الأولى . فعندما عاد من الحبشة إلى مكة لقى ما لقى من أذى أهلها وبلغه خبر الذين أسلموا من الأنصار وعلم إذن الرسول (ﷺ) لأصحابه فأسرع بتلبية الأمر وكان أول مهاجر إلى المدينة . والتسابق على الاستجابة لما رآه رسول الله (ﷺ) كان شأن الصحابة الأجلاء (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) .

وحاشا «لله» أن يكون ذلك فرارا أو خوفا من الأذى ؛ فقد أدرك الرعيل الأول مكانة الهجرة .. وما انبثق عنها من إخاء دينى فاق أخوة النسب ، ولهذا كان الميراث آنذاك قائما على أساس الهجرة وأخوة الدين ووشيجته . ولم يكن على أساس قرابة النسب إلا بعد ذلك حيث أصبح للمسلمين قوة ودار ومنعة وتكاملت دولة الإسلام فى المدينة .

قال « الله » تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ ﴾ (١)

ولنعد إلى نبأ أم سلمة وزوجها ، لقد خرج أبو سلمة بزوجه ومعهما (سلمة) ابنهما . وخرج أبو سلمة بهما مهاجرين يقود بهما بعيره .. فلما رآه رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهم عشيرة زوجه وابنة عمه أم سلمة . لما رأوه قاموا إليه ، فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد . فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوا منه زوجه .

وعندئذ غضب بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة .. فقالوا : لا و «الله» لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا سلمة ابنها بينهم حتى خلعوا يده ولنطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسها بنو المغيرة عندهم . وانطلق زوجها أبو سلمة إلى المدينة .

ولنا هنا وقفة . لقد فرَّقوا بينها وبين فلذة كبدها وزوجها ومع هذا فهى مُصِرَّة على الهجرة ، والزوج هاجر بالفعل تاركا زوجه

---

(١) الأنفال : ٧٢ .

وولده وما ذلك إلا بتأثير الإيمان وبتحريك العقيدة الإسلامية فتجاهها يرخص كل غال .

كما أنهم يعلمون أن الهجرة فرض - حينئذ - وإنها لباقية كذلك حيث كانت أسبابها ، وأما الهجرة التى انتهت بالفتح فى قوله (ﷺ) (**لا هِجرَةَ بعدَ الفتحِ وِلكِنَ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**) فالمقصود بها الهجرة إلى النبى (ﷺ) . قال «الله» تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (١) .

ولقد كانت السيدة أم سلمة تخرج كل غداة فتجلس بالأبطح تبكى حتى مر عام على حالها وإلى أن مر بها رجل من بنى عمها أحد بنى المغيرة فقال لقومه : **ألا تُخرِجُونَ هذِهِ المسكِينةَ . فرَّقْتم بينها وبينَ زوجِهَا وبينَ ولَدِهَا** .. قالت : فقالوا لى : **الحقى بزوجِكِ إن شِئتِ** ، قالت : وردَّ بنو عبد الأسد إلىَّ - عند ذلك - ابنى .. وارتحلت بعيرها ، وخرجت بابنها إلى المدينة .. وتكمل السيدة الكريمة نبأها فتقول : وما معى أحد من خلق «الله» فقلت أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى حتى كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة

(١) النساء : ٩٧ .

بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار فقال لى : **إلى أين يا بنت أبى أمية .** قالت : فقلت : **أريد زوجى بالمدينة** . قال : **وما معك أحد ؟** فقلت : **لا و «الله» إلا «الله» وابنى هذا** . قال : **و «الله» مالك من مترك** ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معى يهوى بى ، فو «الله» ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ثم استأخر عنى . حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط عنه ثم قيده فى الشجرة ثم تنحى عنى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ثم استأخر عنى وقال : **اركبى** ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى نزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى ، حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال : **زوجك فى هذه القرية** - وكان أبو سلمة بها نازلا - **فادخليها على بركة «الله»** ، ثم انصرف راجعا إلى مكة فكانت تقول : (**و «الله» ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة . وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة**) .

ولنا وقفة هامة عند مقالة السيدة أم سلمة (رضى الله تعالى عنها) فقد أصاب آل أبى سلمة ما أصابهم فى أنفسهم وولدهم ، ومع هذا فقد كان حب الله ورسوله مقدما على أعز ما فى الوجود فبرغم ما أصيبوا به لم يثنهم ذلك عن الهجرة واللحاق برسول الله

(ﷺ) والانضمام إلى المعسكر الجديد للدعوة الإسلامية للمشاركة فى نصرة العقيدة ونشر الإسلام وتكوين المجتمع .

أما موقف عثمان بن طلحة . رغم أنه كان كافرا آنئذ فهو موقف يدل على أصالة المعدن العربى ، وما جبل عليه العرب من المروءة الصادقة ، ونجدة المستنجد حتى ولو كان على غير دينه .

لقد كان عثمان هذا يوم أن سار بأم سلمة كافرا ، وإنما دخل الإسلام فى هدنة الحديبية ، وقتل عمه عثمان بن أبى طلحة يوم أحد . وكانت معه مفاتيح الكعبة فأعطاها الرسول عليه الصلاة السلام — يوم الفتح — إلى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وإلى عمه شيبة ابن عثمان بن أبى طلحة وهو جد بنى شيبة حجبة البيت ، واستشهد عثمان بأجنادين فى أول خلافة عمر (رضى الله عنه) .

ومن مواقف الهجرة المباركة تنبثق دروس الأخوة الإسلامية والتناصر والإيثار والمروءة والنجدة ودروس أخرى فى التضحية والبذل والفداء ودروس غيرها فى نصرة المستضعفين من المسلمين وهى تحمل المؤشر القوى لنا فى عصرنا الراهن لنصرة الأقليات الإسلامية ، وإنقاذها ، والوقوف بجانبها . وفى أحكام القرآن لابن العربى يقول : إذا كان فى المسلمين أُسَرَاءُ أو مستضعفون فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة بالبدن بأن لا تبقى منا عين تطرف

حتى نخرج إلى استنقاذهم إذا كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا فى استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك (أ . هـ)

هكذا تُفيءُ علينا دروس الهجرة ومواقفها من العبر ما يضىء الطريق أمام المجتمع الإسلامى والأمة الإسلامية إلى ما فيه صلاح البلاد والعباد .

مشروعية الجهاد فى سبيل «الله»

ظل الرسول (ﷺ) ، والمسلمون فى العهد المكى ثلاثة عشر عاما صابرين لا يعتدون ولا يقابلون حرب المشركين لهم بحرب ، بل كانوا يستجيبون لأمر «الله» تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1]

ولطالما شكا المسلمون للرسول (ﷺ) ما يلاقونه من أعدائهم ، فيجيبهم قائلا : «**اصْبِرُوا ؛ فإنى لم أُوَمَر بِقِتَال**» وظل الحال على ذلك حتى تمت الهجرة من مكة إلى المدينة ، وأصبح المسلمون فى منعة وقوة فأذن «الله» تعالى لهم بالجهاد فى أوائل السنة الثانية للهجرة . ولم يشرع فى السنة الأولى للهجرة لأن المسلمين كانوا يقومون بتكوين دولتهم الجديدة ، وتنظيم أحوالهم ، وبناء المسجد النبوى ، والمؤاخاة ، وما كان فى السنة الأولى إلا بعض سرايا كان الهدف منها إرغام المشركين على التفكير فى تغيير سياستهم ونظرتهم تجاه المسلمين حيث كانوا يستضعفون المسلمين ، فكانت هذه السرايا وما فيها من دلالة القوة تدعو بلسان الحال إلى إفساح الطريق أمام الدعوة

---

(١) **النحل** : ١٢٧ .

الإسلامية لتأخذ طريقها إلى قلوب الناس وكان أول ما نزل من القرآن على أرجح الآراء — فى مشروعية الجهاد — قول «الله» تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

ومر الجهاد بأطوار متدرجة فكان فى أول الأمر مقصورا على قتال الذين قاتلوا المسلمين وعذبوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق :

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ﴾ (٢)

ثم كان الطور الثانى حيث حالفت بعض القبائل قريشا بعد الهجرة وحاولوا مهاجمة المدينة ، بل إن البعض هاجمها بالفعل كما صنع كرز

---

(١) الحج : ٣٩ — ٤١ .
(٢) البقرة : ١٩٠ .

ابن جابر الفهرى الذى أغار على سرح المدينة فخرج إليه المسلمون فى غزوة بدر الأولى فلم يدركوه ، ومنهم من تحرش بالمسلمين فبادر الرسول (ﷺ) بالرد عليهم وكان يرسل السرايا لعقابهم ، وكان لرده عليهم أكبر الأثر فى اطلاعهم على الإسلام وتعرفهم على سماحته فدخل الكثير منهم الإسلام .

ثم كان طور آخر حيث تمالأ المشركون فى مكة وخارجها على المسلمين فكان الأمر الإلهى فى القرآن الكريم :

﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾[1]

ثم إن الرسول (ﷺ) لما كان قد عاهد اليهود وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ولكنهم نقضوا العهد وانضموا مع المشركين بل حرضوهم على القتال كما فى غزوة أحد ، لما حدث منهم ذلك أمر «الله» رسوله عليه الصلاة والسلام بقتالهم : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[2]

ثم لما تم فتح مكة وراسل الرسول (ﷺ) الملوك والأمراء وأصبحت دعوة الإسلام معروفة ، وتحفزت الروم لغزو بلاد المسلمين ، عندئذ جمع الرسول (ﷺ) الجموع وخرج إليهم فلم يجد

---

(١) التوبة : ٣٦ . (٢) الأنفال : ٥٨ .

أحدا ، ولكنه أراهم قوة الإسلام ، ومنذ ذلك الحين انتقل الجهاد إلى خارج الجزيرة ، وحدثت وقائع كبيرة بعد أن لحق الرسول (ﷺ) بالرفيق الأعلى ، وتمت الفتوحات الإسلامية الكبيرة بفضل « الله » ونصره وتأييده للمسلمين .

أنــواع الجهـــاد

والجهاد أربعة أنواع : جهاد الكفار ، وجهاد النفس والشيطان ، وجهاد البغاة الخارجين على الإمام ، وجهاد أهل البدع والأهواء الذين لم يخرجوا على الإمام .

- وأول هذه الأنواع قد تخلص فيه النية وتصدق فيه العزيمة فيسمو سموا إيمانيا صادقا يجمع الأنواع كلها وذلك : حين يجاهد فى سبيل «الله» بدافع عقيدته وهو حينئذ يكون قد جاهد نفسه وشيطانه ولم يخالف إمامهُ ولم يتبرم بأوامره ، وارتفع بنفسه عن مستوى جميع الأهواء والبدع .

وهذا النوع من الجهاد يكون باللسان وباليد وبالمال وبالقلب **فالجهاد باللسان** : يكون بإقامة الحجج ودفع الشبه ، يتصدى لذلك الراسخون فى العلم الواقفون على أسرار الشريعة العارفون بطرق الأدلة وأحوال الناس .

ولقد كان أروع وأعظم سلاح من هذا النوع يجده الرسول (ﷺ) فى القرآن الكريم فيجاهد بالقرآن جهادا كبيرا .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢ ﴾ [1]

والجهاد باليد : وهو قتال الكفار وقد شرع فى السنة الثانية من الهجرة .

والجهاد بالمال : وهو بذله فى تجهيز الجيوش وإعداد السلاح ومداواة جرحى الحرب .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [2]

والجهاد بالقلب : وهو عدم الرضا عن كفرهم والسخط عليهم وذلك هو البغض فى «الله» ويجمع هذه الفروع كلها حديث الرسول (ﷺ) :

---

(١) الفرقان : ٥١ ، ٥٢ .   (٢) التوبة : ٦٠ .

عن أنس (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) :
«**جاهِدُوا المشرِكِين بأَموَالِكُمْ وأنفُسِكُمْ وأَلْسِنَتِكُمْ**»[١]

● **والثانى من أنواع الجهاد : جهاد النفس والشيطان** ، وهذا النوع من الجهاد يكون بمخالفة هوى النفس ودفع ما يوسوس به الشيطان – ويشمل جميع ما يصدر عن المكلف فعلا أو تركا يحتاج إلى مجاهدة النفس والشيطان .

وقد أمر «الله» سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يولوا الشيطان ظهورهم فلا يتبعوا خطواته لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر .

قال تعالى :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ ﴾[٢]

● **والثالث من أنواع الجهاد : جهاد البغاة الخارجين على الإمام** الذين شقوا عصا الطاعة ، وخالفوا الجماعة .

يدل لفرضية قتال هؤلاء ما رواه عرفجة الأشجعى قال : سمعت

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى .   (٢) النور : ٢١ .

رسول الله (ﷺ) يقول : «**مَنْ أَتاكُمْ وأَمْرُكُمْ جميعٌ عَلَى رَجُلٍ واحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُم أَو يفرِّق جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوْه**»[1]

● **والرابع من أنواع الجهاد : جهاد أهل البدع والأهواء** وهؤلاء وإن لم يخالفوا الإمام إلا أن بدعهم يتفاقم خطرها ، وأهواءهم يستشرى شرها فتجب مقاومتهم والأخذ على أيديهم .

وقد بيَّن لنا الرسول (ﷺ) أن من رأى منكرا من هذا القبيل وجب عليه أن يقاومه ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن يغيره بالقوة التى يملكها ، وبالأسلوب الذى يستطيعه .

قال عليه الصلاة والسلام :

«**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلبه ، وذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمانِ**»[2]

---

(١) رواه أحمد ومسلم .　　(٢) رواه مسلم .

حكمة مشروعية الجهاد

قال «الله» تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

وقد روى عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهرى ، وروى الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس : إنها أول ما نزل فى القتال .

هذا وقد تضمنت الآيات السابقة الحكمة من مشروعية الجهاد وهى تتلخَّص فى :

---

(١) الحج : ٣٨ — ٤١ .

● **الانتصار للنفس ورفع الظلم عن المظلوم** وقد عاش المسلمون طيلة العهد المكى بالصبر والتسامح ، ولكن المشركين زادوا فى الظلم والاعتداء . فكان لابد من مقابلة القوة بمثلها .

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

وتمكين المسلمين من ممارسة أعمالهم الدينية ، والقيام بعبادتهم فى حرية تامة . والتمكين للدعوة الإسلامية لتأخذ مجراها للقلوب وطريقها فى الحياة كما جاء بذلك الوحى :

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ (٢)

وفى مشروعية الجهاد أمان النفوس ، وتمكين للدين ، وإطلاق لحريات الناس .. فالمسلمون يوم أن تكون لهم الغلبة فلا خوف على أهل الأديان الأخرى ، وأما لو كان الغلب لغيرهم ضاعت قيم الحياة وموازين الأديان قال تعالى :

---

(١) الشورى : ٤١ ، ٤٢ .

(٢) الأنعام : ١٩ .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]

حكـــم الجهـــاد

اتفق جمهور أهل العلم سلفا وخلفا على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به من يكفى فى رد اعتداء المعتدين ، وظلم المظلومين سقط الطلب عن الباقين ، وإلا أثم الجميع ولا يرتفع الإثم إلا بخروج من فيهم الكفاية .

ثم يصير الجهاد فرض عين فى أحوال .

- **إذا تقابل الفريقان** فيجب على من حضر القتال ، ويحرم عليه الفرار ، بل إنه يكون من أكبر الكبائر .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[2]

---

(١) الحج : ٤٠ . (٢) الأنفال : ٤٥ .

وقد جعل «الله» تعالى الفرار من العدو وتوليته الأدبار من أكبر الكبائر ، ولم يبح ذلك إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزا إلى فئة .

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله (ﷺ) قال :

«اجتَنِبُوا السَّبعَ الموبِقَاتِ ، قيل : وما هُنَّ يا رسولَ الله ؟ قال : الشِّرْكُ بالله ، والسِّحْر ، وقَتْلُ النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الرِّبا ، وأكل مالِ اليتيم ، والتَّوَلِّى يومَ الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» .

- إذا اعتدى الكفار على بلد من بلاد الإسلام وشنوا عليه هجوما . فالجهاد حينئذ واجب عينى على أهل هذا البلد جميعا كما يجب أيضا على إخوانهم المسلمين من البلاد الأخرى أن يهبوا لمساعدتهم ، وأن يقوموا بمعاونتهم أداء لأخوة الإسلام .

---

(١) الأنفال : ١٥ ، ١٦

وروى مسلم أن النبى (ﷺ) قال : «**المسلمُ أخو المسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ**» .

● وأيضا إذا أمر ولى الأمر أحدا بالقتال أصبح فرضا .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ ﴾[١]

---

(١) التوبة : ٣٨ .

بالحِكْمةِ والموْعِظَـةِ الحَسَـنَـةِ انتـشـرَ الإسْلاَمُ لا بالسَّيْفِ كمـا يَـدَّعـى المفْـرضُون

لقد رسم القرآن الكريم منهج الدعوة فى قول «الله» تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١)

وفى العهد المكى مكث رسول الله (ﷺ) يدعو الناس إلى الإسلام فيدخل الناس فى الإسلام عن اقتناع ، لقد دخل الفقراء فى الإسلام كما دخل العبيد وليس لدى الرسول (ﷺ) من المال ما يغرى هؤلاء بل إنهم كانوا يواجهون الاضطهاد والإيذاء من المشركين فما زادهم ذلك إلا إيمانا وتثبيتا . لقد هاجر بعضهم الهجرتين إلى الحبشة ، وهاجر الجميع إلى المدينة ، وتركوا الأهل والوطن والمال اقتناعا بالإسلام وحبا «لله» ولرسوله .

ولم يكن فى هذه الفترة قد شرع الجهاد ، ولم يكن لدى الرسول (ﷺ) والمسلمين من المال أو القوة ما يغرى الناس أو يقهرهم على الدخول فى الإسلام .

---

(١) النحل : ١٢٥ .

ثم إنه لما شرع الجهاد ، شرع - كما سبق - للدفاع عن العقيدة وتمكينها فى الانتشار ، ولرد الظلم الذى يقع على المسلمين .

بل إن الإسلام لم ينه عن البر بمن حالفنا فى الدين إذا لم يقاتلونا فى الدين و لم يخرجونا من ديارنا قال تعالى :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

وقد قال « الله » تعالى فى كتابه العزيز :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (٢)

وقد روى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث النبى

---

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ .   (٢) البقرة : ٢٥٦

(ﷺ) ، ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال : **لا أدعكما حتى تُسْلِمَا** ، فاختصموا إلى النبى (ﷺ) وقال : **يارسولَ الله ، أيدخلُ بَعْضى النارَ وَأنَا أَنْظُرُ ؟!** فأنزل «الله» تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ (١)

فخلى سبيلهما ، وقال «الله» تعالى :

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩ ﴾

وقال جل شأنه :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ ﴾ (٢)

وتشهد السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بسماحته وحكمته ..

روى الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله (ﷺ) كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : **اغْزُوا باسْمِ «الله» فى سبيلِ «الله» قاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بـ «الله» اغزُوا ولا تُغُلُوا ولا تغْدرُوا ولا تُمثِّلُوا ، ولا تقتُلوا وَليدًا ، وإذا لقيتَ عَدُوَّكَ من المشركِينَ فادْعُهُمْ إلى ثلاثِ خِصال أو خِلال ، فأيتهُنَّ ما أجابُوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهُمْ ثم ادْعُهم**

---

(١) البقرة : ٢٥٦ . (٢) يونس : ٩٩ . (٣) الكهف : ٢٩

إلى الإسلام فَإن أَجَابُوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهُمْ فَإنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الجِزْية فَإنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنهُمْ وكُفّ عنهم فَإن هُمْ أَبَوْا فاسْتَعِنْ بـ «الله» وقَاتِلْهُمْ» والجزية ليست لإكراههم على الدخول فى الإسلام ولا نوعا من التشدد عليهم وإنما هى مقابل حماية المسلمين لهم وتقديم ما يحتاجون من خدمات ، وروى البلاذرى فى فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لواقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الجزية وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل - مع أنه على دينهم - عن المدينة ومعاملة الرسول (ﷺ) عبر حياته كلها تتسم بروح التسامح والرأفة ، والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالقوة والسيف ، وهذا نموذج يشهد بتسامح الإسلام ورسول الإسلام وهو موقف رسول الله (ﷺ) من سيد بنى حنيفة الذى أسره المسلمون فى إحدى السرايا وهو : ثمامة بن أثال الحنفى أسره المسلمون وهم لا يعرفونه فأتوا به إلى رسول الله (ﷺ) فعرفه وأكرمه وأبقاه عنده ثلاثة أيام وكان فى كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضا كريما فيأبى ويقول : إن تسأل مالا تعطه وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر فما كان من النبى (ﷺ) إلا أن أطلق سراحه ، فأثرت هذه السماحة فى الرجل ، فذهب واغتسل ثم عاد إلى رسول الله (ﷺ) ودخل

الإسلام عن اقتناع واختيار وقال له : **يا محمد ، والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ،والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليَّ من دينك فقد أصبح دينك أحب الدين كله إليَّ و«الله» ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك فقد أصبح أحب البلاد إليَّ** وسرَّ الرسول (ﷺ) بإسلامه فقد أسلم بإسلامه كثير من قومه .

ومما لا شك فيه أن الذى يكره على شىء لا يثبت عليه وإنما يتخلص منه إذا وجد سبيلا إلى ذلك ، بل يكون عدوا له ولكننا عبر تاريخ الإسلام لم نجد أحدا ارتد سخطة عن دينه بعد أن يدخل فيه ، بل وجدنا المسلمين تعرضوا عبر تاريخهم إلى حروب وانقسامات لأقطارهم وتسلط أعدائهم عليهم ومع هذا فلم نجد أحدا منهم رجع عن دينه بل ثبتوا على الإسلام حتى فتح «الله» عليهم بركات من السماء والأرض وجاءهم نصر «الله» والفتح .

السـرايـا

السرايا جمع سرية ، والسرية هى الفرقة من الجيش التى لا يخرج معها الرسول (ﷺ) ، أما التى يكون الرسول (ﷺ) فيها فتسمى غزوة . وسميت السرية بهذا الاسم لأنها تسرى فى خفية دون ظهور .

وقد استهدفت تلك السرايا إشعار العالم عامة وإشعار أعداء الإسلام خاصة أن المسلمين فى قوة ومنعة ، وليسوا ضعفاء كما كانوا من قبل ، حتى لا تحدِّث المشركون أنفسهم بالاعتداء عليهم مرة أخرى .

كما أن فى تلك السرايا عقوبة لأعداء المسلمين وردًا على ما صنعوه بالمسلمين من إخراجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا «الله» ، وما أخذوه من أموالهم ظلما وعدوانا ، وكأن تلك السرايا كانت بمثابة الإنذار للمشركين إن هم حاولوا الاعتداء على المسلمين أو حاولوا الوقوف والتصدى للدعوة فإن عاقبتهم ستكون أليمة ، ولن يسكت المسلمون على حقهم .

● **سرية حمزة :**

كانت سرية حمزة بن عبد المطلب فى شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة ، فقد أرسله الرسول (ﷺ) فى ثلاثين راكبا

ليعترضوا عيرا لقريش فيها أبو جهل فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى فأطاعوه ولم يحدث قتال .

● **سرية عبيدة بن الحارث :**

وكانت فى شهر شوال من السنة الأولى حيث أرسله النبى (ﷺ) فى ثمانين راكبا ليعترضوا عيرا لقريش فتلاقوا ببطن رابغ وكان على العير أبو سفيان بن حرب فى مائتى رجل فتراموا بالنبال وخاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا وتفرقوا ولم يحدث قتال . وفى هذه السرية أطلق أول سهم فى الإسلام وكان الذى أطلقه عبيدة بن الحارث ، وقيل سعد بن أبى وقاص .

● **سرية سعد بن أبى وقاص :**

وفى السنة الأولى كذلك فى آخر شهر شوال خرج سعد بن أبى وقاص فى عشرين رجلا ليعترضوا عيرا لقريش ، ولكن العير كانت قد مرت ولم يلقوا أحدا .

غزوة ودان أو الأبواء

هى أول غزوة غزاها الرسول (ﷺ) وكانت فى شهر صفر من السنة الثانية حيث خرج الرسول (ﷺ) وبعض أصحابه ليعترض عيرا لقريش ، واستخلف سعد بن عبادة على المدينة فلما بلغ ودان وجد العير قد فات فوادع النبى بنى ضمرة وحالفهم وهى أول معاهدة عقدها الرسول (ﷺ) مع غير يهود المدينة .

و (الأبواء وودان) مكانان متقاربان بينهما ستة أميال أو ثمانية ، والأبواء قرية من عمل الفرع بينها وبين الجحيفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلا .

غـــزوة بـــــواط

و«بواط» بفتح الموحدة وقد تضم : جَبَل من جبال جهينة بقرب ينبع وقد اتجه رسول الله (ﷺ) يريد قريشا فى شهر ربيع الأول من السنة الثانية واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بواط فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى .

غـــزوة العشـــيرة

والعشيرة ببطن ينبع وخرج إليها فى جمادى الأولى يريد قريشا أيضا فوادع فيها بنى مدلج من كنانة ، واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد .

وذكر الواقدى أن هذه السفرات الثلاث كان يخرج فيها ليلقى تجار قريش حين يمرون إلى الشام ذهابا وإيابا .

غزوة بـــدر الأولـــى

عندما قدم الرسول (ﷺ) إلى المدينة من غزوة العشيرة مكث ليالى قلائل وإذا بكرز بن جابر الفهرى يغير على سرح المدينة فخرج رسول

الله (ﷺ) فى طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ومضى كرز ابن جابر دون أن يدركه ، ثم رجع الرسول (ﷺ) إلى المدينة .

سـريـة عبد الله بن جحـش

كانت سرية عبد الله بن جحش فى شهر رجب من السنة الثانية ، أرسله رسول الله (ﷺ) فى اثنى عشر رجلا من المهاجرين وقيل ثمانية وقيل سبعة ، كل اثنين يعتقبان بعيرًا – أرسله إلى بطن نخلة وهو بستان ابن عامر قرب مكة ، وأمره أن يرصد بها عير قريش ، وأعطاه كتابا وقال له : **«لا تَفْتَحْهُ إلا بعدَ يَوْمَينِ ، فإذا فتحته فامْضِ لما أَمَرْتُكَ بِهِ ولا تَسْتَكْرِه أَحَدًا مِنْ أصحابِكَ»** فلما سار بهم يومين فتحه فوجد فيه ما يأتى :

«إذا نظرت كتابى فامْضِ حتَّى تَنْزِلَ نخلةً بينَ مكَّةَ والطائف فترصد بها قُريشًا وتعلم لنا من أخبارهم» فلما قرأ الكتاب قال : سمعا وطاعة ، وأخبر أصحابه بما اشتمل عليه هذا الكتاب وقال : **قد نهانِى أنْ أستكْرِهَ أحدًا منكم ، فمَنْ كانَ يريدُ الشهادَة ، ويرغبُ فيها فلينطلق ، ومن كَرِه ذلكَ فَلْيَرْجِعْ ، فأمَّا أنا فماضٍ لأمرِ رسولِ الله** (ﷺ) ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلفْ أحدٌ . وقد تجلت الحكمة الدقيقة فى عدم إخبار السرية بالهدف من إرسالهم قبل أن يغادروا المدينة حتى لا يتسرَّب الخبر إلى أحد المنافقين أو اليهود ، فينقل إلى قريش فتترصدهم فى مكان بعيد وتنال منهم .

وكان البعير الذى يعتقبه سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان قد شرد منهما فتخلَّفا فى طلبه ، وسار الركب حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمى ومعه ثلاثة ، فهاجمها عبد الله والذين معه ، وقتل فى هذه المعركة عمرو بن الحضرمى ، وأسر اثنان من المشركين ، وعاد عبد الله بالقافلة والأسيرين . وقدموا المدينة على رسول الله (ﷺ) .

فلما علم الرسول (ﷺ) أنهم قاتلوا فى رجب قال : « **مَا أَمَرْتُكُم بِقِتَالٍ فى الشهر الحَرَام** » ، وأبى أن يأخذ شيئا ، وسقط فى أيدى القوم وعنفهم إخوانهم المسلمون ، وأخذ المشركون يطعنون فى المسلمين ويقولون : قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال .. وفى هذه الفترة نزل الوحى يرد عليهم افتراءهم ، ويؤيد تصرف عبد الله ، فقد سبق أن حارب المشركون الإسلام وصدوا عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وأخرجوا المسلمين من بلدهم وتآمروا على قتل الرسول (ﷺ) قال الله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ

حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ (١)

وعبد الله بن جحش هو أول من عقدت له الراية فى الإسلام ، وأمه هى عمة الرسول (ﷺ) أمية بنت عبد المطلب ، وقد كان من مهاجرة الحبشة ، وممن شهد بدرا ، وصاهر رسول الله (ﷺ) بأخته زينب بنت جحش ، قال الشعبى : أول لواء عقد فى الإسلام لواء عبد الله بن جحش وأول مغنم قسم فى الإسلام مغنم عبد الله ابن جحش .

---

(١) البقرة : ٢١٧ ، ٢١٨ .

غزوة بدر الكبرى

«بدر» : هو موضع الغزوة المشهورة وهو عبارة عن ماء معروف ، وقرية عامرة على نحو أربع مراحل من المدينة بينها وبين مكة .

وقال ابن قتيبة : بدر : بئر كانت لرجل يسمى بدرا فسميت باسمه .

وقال بعض العلماء : كانت لرجل من بنى غفار ، وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

سبب الغزوة : لما علم الرسول (ﷺ) ، أن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام فى عير لقريش فيها تجارتهم وأموالهم ، دعا المسلمين لملاقاتهم وقال :

«هذه عِيرُ قريشٍ ، فاخْرُجُوا إليها لعلَّ الله أن ينفلكموها» فخف البعض وتثاقل البعض ظنا منهم أنه لا يريد حربا ، واستخلف النبى (ﷺ) عبد الله بن أم مكتوم ليصلى بالناس فى المدينة .

ولم يكن تعرض المسلمين لعير قريش إلا جزاء ما صنع المشركون بهم من قبل فقد أخرجوهم من ديارهم وأبنائهم فى مكة ، واستولى المشركون على أموال المسلمين فى مكة وممتلكاتهم ، هذا بالإضافة إلى أن أموال الحربيين تعتبر غير محترمة فللمسلمين الاستيلاء عليها ...

ومع هذا فقد شاءت الحكمة الإلٰهية أن تفلت العير ، لتكون المعركة ، والجهاد فى سبيل «الله» من أجل نشر الدعوة الإسلامية . وكان مع رسول الله (ﷺ) ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا منهم نيف وأربعون ومائتان من الأنصار والباقى من المهاجرين و لم يتخلف إلا عثمان بن عفان لمرض زوجته السيدة رقية بنت رسول الله (ﷺ) .

والذين تثاقلوا عن الخروج أول الأمر ما كانوا يتوقعون القتال ، لأنهم لم يكونوا على استعداد ، هذا هو السبب لا أنهم كرهوا لقاء قريش قال تعالى :

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾[1]

لقد كانوا فى بادىء الأمر يرغبون فى العير وهى المقصودة بقوله تعالى :

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾[2]

ولكن «الله» تعالى يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها شوكة

(١) الأنفال : ٥ .　　(٢) الأنفال : ٧ .

وقتال لينصركم عليهم ويظهر دين الحق وترتفع راية الإسلام ، وهو أعلم بعواقب الأمور .

وهكذا شاءت إرادة «الله» تعالى أن تكون ذات الشوكة وهى المعركة والقتال .

ولكن المسلمين ما إن علموا الحقيقة إلا وسارعوا لتلبية النداء .. وكان مع رسول الله (ﷺ) والمسلمين سبعون بعيرا يعتقبونها ، كل ثلاثة يعتقبون على بعير ، عن عبد الله بن مسعود قال : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير - أى يعتقبون - وكان أبو لبابة وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله (ﷺ) ، قال : فكانت عقبة رسول الله (ﷺ) ، فقالا له : نحن نمشى عنك ، فقال : « **ما أَنْتُما بِأَقْوَى مِنِّى ، وَلاَ أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْر منكما** » رواه أحمد .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبو كبشة يعتقبون بعيرا .

وسار الجيش الإسلامى خارج المدينة حتى وصل بيوت السقيا وعسكر هناك ، واستعرض رسول الله (ﷺ) الذين خرجوا معه ، فرد كل من لا قدرة له على الجهاد ، ومن هؤلاء الذين ردهم البراء بن عازب ، وعبد الله بن عمر ، عن البراء قال : « **استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر وكان المهاجرون يوم بدر نيفا وستين والأنصار نيفا وأربعين ومائتين** » رواه البخارى .

استشـــارة الرســول للمســلمـين

يقول محمد بن إسحاق رحمه «الله» : لما سمع رسول الله (ﷺ) بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل «الله» أن ينفلكموها ، فانتدب الناس ، فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله (ﷺ) يلقى حربا وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك .

فاستأجر (ضمضم بن عمرو الغفارى) فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشا ، فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة .

وخرج رسول الله (ﷺ) فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له : ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل ، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول الله (ﷺ) الناس ، وأخبرهم عن قريش .

فقام أبو بكر (رضى الله عنه) فقال فأحسن ، ثم قام عمر (رضى الله عنه) فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال :

يا رسول الله امض لما أمرك «الله» به ، فنحن معك ، و «الله» لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمار – يعنى مدينة الحبشة – لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال رسول الله (ﷺ) خيرا ، ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله (ﷺ) « **أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّها النَّاس** » وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله (ﷺ) يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم .

فلما قال رسول الله (ﷺ) ذلك قال له سعد بن معاذ : **والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟**

قال : أجل ، فقال : **فقد آمنا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أمرك «الله» ، فو الذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند**

الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل «الله» يريك ما تقر به عينك ، فسِرْ بنا على بركة «الله» ، فَسُرَّ رسول الله (ﷺ) بقول سعد ، ونشطه ذلك ثم قال : « **سِيرُوا عَلَى بَرِكَةِ «الله» وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ «الله» قَدْ وَعَدَنِى إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ و «الله» لَكَأَنِّى الآنَ أَنْظُرُ إلى مَصَارِعِ الْقَوْمِ** » .

وقد كان تعداد جيش المشركين تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس وسبعمائة بعير يعتقبونها .

وقد كانت استشارة رسول الله (ﷺ) اختبارا لإيمان أتباعه وقوة يقينهم وحبهم ، ومدى استعدادهم للجهاد فى سبيل «الله» والتضحية والفداء من أجل رفع راية التوحيد ..

وهكذا كانت حياته (ﷺ) تتسم بالشورى فى كل أمر لا نص فيه من كلام «الله» سبحانه وتعالى ، والأخذ بمبدأ الشورى هو تطبيق لأمر «الله» تعالى له فى قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

---

(١) آل عمرن : ١٥٩ .

ولهذا كان رسول الله (ﷺ) يشاور أصحابه فى الأمر إذا حدث ، تطييبا لقلوبهم ، ففى هذه الغزوة شاورهم فى لقاء العدو ، وشاورهم فى مكان النزول كما سيأتى .

كما شاورهم فى غزوة أحد ، فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم ، وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فترك ذلك ، فكان (ﷺ) يشاورهم فى الحروب ونحوها .

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) فى قول الله تعالى :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (١)

قال : نزلت فى أبى بكر وعمر وكانا حوارى رسول الله (ﷺ) ووزيريه وأبوى المسلمين .

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله (ﷺ) قال لأبى بكر وعمر : « **لو اجْتَمَعْتما فِي مَشُورَة مَا خالَفْتُكُمَا** » وروى ابن مردويه عن على بن أبى طالب قال : سئل رسول الله (ﷺ) عن العزم ؟ فقال : مُشَاوَرَةُ أَهْل الرَّأْى ثُمَّ اتّبَاعُهم . وقد روى ابن ماجه عن أبى هريرة عن النبى (ﷺ) قال : « **المستشار مؤتمن** » .

---

(١) آل عمرن : ١٥٩ .

التعرف على أخبار قريش

كان أبو سيفان قد أرسل إلى قريش فخرجت عن بكرة أبيها ، و نجا بالعير فأشار عليهم بالرجوع وقال : إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها «الله» فارجعوا .

ورأى كثير منهم ما رآه أبو سفيان من الرجوع ولكن أبا جهل أبى أن يرجعوا وقال : و «الله» لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليها ثلاثا ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا .

ولما كان المسلمون على مقربة من بدر ، ركب رسول الله (ﷺ) وصاحبه أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) وبلغا شيخا من العرب يقاله له سفيان الضمرى فسأله الرسول (ﷺ) عن قريش وعن محمد وأصحابه فقال : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله (ﷺ) إذا أخبرتنا أخبرناك فقال : أوذاك بذاك ؟ فقال : نعم قال الشيخ : فإنه بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى جمع به الرسول (ﷺ) ، وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذ وكذا فإن كان الذى أخبرنى صدقنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذى به قريش فلما فرغ قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : نحن

من ماء ثم انصرفا عنه فقال الشيخ ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ، وكلمة (من ماء) من التورية تحتمل معنيين أحدهما قريب وهو المكان المعروف بهذا الاسم والآخر بعيد وهو الماء الذى خلق منه كل إنسان ، وذلك لأن الحرب خدعة .

ثم بعث رسول الله (ﷺ) بعد ذلك على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر إلى ماء بدر للتعرف على الأخبار فأصابوا إبلا لقريش لها يستسقى عليها غلامان فأتوا بهما ورسول الله (ﷺ) يصلى ، فقالا : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان ، فضربوهما فلما أوجعوهما قالا : نحن لأبى سفيان ، فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله (ﷺ) من صلاته قال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا و «الله» إنهما لقريش .

ثم قال لهما : **أَخبِرانى عَنْ قُرَيشٍ** ، فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : **كَم الْقَومُ** ؟ قالا : كثير ، قال : **مَا عُدَّتُهم** ؟ قالا : لا ندرى .

قال الرسول (ﷺ) : **كَم يَنْحَرُونَ كُلَّ يَومٍ ؟**

قالا : يومًا تسعًا ، ويومًا عشرًا .

فقال رسول الله (ﷺ) : **القومُ مَا بينَ التسعمائةِ والألفِ .**

فقال لهما : **فَمَنْ فِيهِم مِنْ أَشْرَافِ قُرَيشٍ ؟**

فذكرا عتبة بن ربيعة ، وشيبة ، وأبا جهل ، وأمية بن خلف وسهل بن عمرو وآخرين من صناديد قريش .

فأقبل رسول الله (ﷺ) إلى أصحابه قائلا : « **هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُم أَفْلاَذَ كَبِدِهَا** » .

نـــزول المســلمين فــى بـــدر

وقد مضى المسلمون فى طريقهم إلى أن وصلوا بعدوة الوادى الدنيا ، وهو جانب الوادى القريب من المدينة ، بعيدًا عن الماء ، وكان نزولهم أيضا فى أرض سبخة لا تثبت عليها الأقدام وأصبح القوم وقد ظمئوا ، والبعض أحدث وأصبح الآخر جنبا ، وحاول الشيطان أن يوسوس لهم ويلقى الشك فى بعض النفوس قائلا : ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع الظمأ رقابكم ويذهب قواكم .

وهنا تجلت عناية «الله» سبحانه وتعالى ، حيث أبطل كيد الشيطان ، وتدارك سبحانه عباده المؤمنين فأرسل السماء عليهم مدرارا ، فشربوا وارتوى من كان ظمآن ، وتوضأ المحدث ، واغتسل الجنب ، وملأوا الأسقية ولبد المطر الأرض فثبتت عليها الأقدام .

وفى الوقت نفسه كان هذا المطر نقمة على المشركين حيث وحل

الأرض تحت أقدامهم فما قدروا على الارتحال وفى هذا يقول «الله» تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾[1]

ولما نزل الرسول (ﷺ) هذا المكان قال الحُباب بن المنذر الخزرجى : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه «الله» ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال الرسول (ﷺ) : **بَلْ هُوَ الرَّأْىُ وَالحرْبُ وَالْمكِيدَة .**

فقال : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله (ﷺ) : **لَقد أَشرت بالرَّأى** ، وأخذ (ﷺ) بمشورة الحباب .

كما أشار سعد بن معاذ الأوسى قائلا : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا «الله» وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى

---

(١) الأنفال : ١١ .

جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك «الله» بهم ويناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه الرسول (ﷺ) خيرا وأخذ بمشورته وبنى له العريش .

ثم أخذ رسول الله (ﷺ) يطمئن أصحاب قائلا : هذا مصرع فلان ومصرع فلان - أى من المشركين - وهو يضع يده على الأرض ، فما تزحزح أحدهم عن موضع يده .

ليلة اللقاء

● وفى تلك الليلة - ليلة اليوم الذى سيلتقى فيه الجيشان - رأى رسول الله (ﷺ) المشركين قليلا عددهم ، كى يجرؤا عليهم ولا يهابوهم كما قال تعالى :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)

فأراه «الله» المشركين فى منامه قليلا ، وأخبر النبى (ﷺ) أصحابه

---

(١) الأنفال : ٤٣ .

بذلك فكان تثبيتا لهم ، ولو أراه أياهم كثيرا ربما اختلفوا فيما بينهم أو خافوا منهم .

كما شاءت إرادة الحكيم الخبير أن يقلل عدد المشركين فى أعين المسلمين ، ويقلل عدد المسلمين فى أعين المشركين ليتجرأ كل فريق فتكون المعركة وإذا أراد «الله» أمرا يسر له الأسباب قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]

قال ابن مسعود (رضى الله عنه) : لقد قُلِّلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه فقال : كنا ألفا . وهكذا أغرى «الله» تعالى كل فريق بالآخر وقلّله فى عينه ليطمع فيه لتكون المواجهة .

وأما عندما التحم الجيشان ، فقد أيد «الله» المؤمنين بجنود من الملائكة مردفين ، فكان الكفار ينظرون إلى المؤمنين فيرونهم مثليهم ، كما قال تعالى :

---

(١) الأنفال : ٤٤ .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾[1]

فى يوم اللقاء

فى صبيحة يوم اللقاء ، يوم التقى الجمعان صف رسول الله (ﷺ) جنود المسلمين للقتال صفوفا منتظمة كأنها البنيان المرصوص .

ولما رأى رسول الله (ﷺ) قريشا تنحدر من وراء الكثيب إلى الوادى قال : « **اللّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشُ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلاَئِهَا وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ ، اللّهُمَّ فَنَصْرَكَ الّذِى وَعَدْتَنِى اللّهُمَّ أَحِنْهُمْ الْغَدَاة** » « **وأحنهم** » من الحين أى الهلاك .

ووقف الفريقان وجها لوجه ، وابتدأت المعركة بالمبارزة .

وبعد المبارزة ، وقف رسول الله (ﷺ) ينظم الصفوف ويعدلها بقضيب كان فى يده فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار ، وكان خارجا عن الصف فطعن فى بطنه بالقضيب وقال : **اسْتَقِم يَا سَوَاد** . فقال : يارسول الله أوجعتنى وقد بعثك «الله» بالحق والعدل فأقدنى – أى مَكِّنِّى لأقْتَصَّ – فكشف له رسول الله (ﷺ) عن

---

(١) آل عمرن : ١٣ .

بطنه وقال : « **اسْتَقِدْ يَا سَوَاد** » فاعتنقه سواد ، وقبل بطنه ، فقال له الرسول (ﷺ) : **وَمَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ ؟** قال : يا رسول الله حضر ما ترى - أى موطن الاستشهاد فى سبيل «الله» - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا له الرسول بخير وفى هذا الموقف الرائع من الدلائل العظيمة والنبيلة ما يدل على قمة العدل الذى لا نظير له فى الوجود من رسول الله (ﷺ) وهو يمكن سواد بن غزية ويقول له : استقد يا سواد كاشفا عن بطنه راضيا كما يدل على حب الرجل لرسول الله (ﷺ) ، وهو حب شديد برهن عليه حين أعلن أن أسمى أمانيه أن يفارق الحياة وقد حظى ببركة رسول الله (ﷺ) وبلمسة من جسده الشريف .

وفى يوم اللقاء هذا خرج رسول الله (ﷺ) يحرض القوم على القتال ، ويبشرهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار قائلا لهم :

وَالَّذِى نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يُقَاتِلُهُمُ الْيوم رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ إلاَّ أَدْخَلَهُ «الله» الْجَنَّةَ ، وَمَنْ قتلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُه وقال : **قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَات وَالْأَرْض** ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عميرُ بن الحمام قال : يا رسول الله .. جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : **نعم** ، قال : بخ بخ - وهى كلمة استحسان ورضا وحب - فقال له الرسول (ﷺ) : **ما يَحمِلُكَ عَلَى قَوِل بَخٍ بَخٍ ؟** قال : لا و«الله» يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها .

قال : **فإنك من أهلها** ، وكان مع عمير بن الحمام بعض تمرات في يده يأكل منهن فقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما بقى معه ثم قاتل وهو يقول :

رَكْضًا إلى « الله » بِغَيْرِ زَادِ　　إلا التُّقَى وَعَمَلِ المعَادِ
والصَّبْرِ فى «الله» عَلَى الْجِهَادِ　　وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التُّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ

وما زال يقاتل حتى قتل شهيدا .

وفيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه : قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : لما كان يوم بدر نظر رسول الله (ﷺ) إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل نبى الله (ﷺ) القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه :

اللَّهُمَّ انْجز لِى مَا وَعَدْتَنِى ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِى ، اللَّهُمَّ إن تُهلكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإسْلامِ لاَ تُعْبَد فِى الأَرْضِ ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مادًّا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبى «الله» كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ ربَّك فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ «الله» عزَّ وجل :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ ﴾ (١)

فأمده «الله» بالملائكة قال أبو زميل : فحدثنى ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم (٢) فنظر إلى المشرك أمامه ، فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ، فاخضرّ ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله (ﷺ) فقال : (صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة) ، فقتلوا يومئذ سبعين ، وأسروا سبعين قال أبو زميل قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله (ﷺ) لأبى بكر وعمر : **(مَا تَرونَ فى هؤلاءِ الأسارى)** ؟ فقال أبو بكر : (يانبى الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى «الله» أن يهديهم للإسلام) ، فقال رسول الله (ﷺ): **(مَا ترى يا ابن الخطاب)**؟ قلت: (لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكنى من فلان « نسيبا لعمر » فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوى رسول

---

(١) الأنفال : ٩ .

(٢) حيزوم : اسم فرس الملك .

الله (ﷺ) ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر قاعدين يبكيان .

قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟

فقال رسول الله (ﷺ) أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علىَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة « **شجرة قريبة من نبى الله (ﷺ)** » .

وأنزل «الله» عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [1]

فأحل «الله» الغنيمة لهم [2] . قد أسف الصحابة على هذا العتاب . وكفوا عن الانتفاع بالفداء حتى أنزل «الله» قوله :

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ ﴾ [3]

---

(١) الأنفال : ٦٧ — ٦٩ . . (٢) رواه مسلم .

(٣) الأنفال : ٦٩ .

وقال العلماء عن تلك المناشدة التي ناشد رسول الله (ﷺ) ربه وعن دعائه واستغاثته به قالوا : هذه المناشدة إنما فعلها النبى (ﷺ) ؛ ليراه أصحابه بتلك الحال ، فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرعه مع أن الدعاء عبادة ، وقد كان وعده «الله» تعالى إحدى الطائفتين إما العير وإما الجيش ، وكانت العير قد ذهبت وفاتت ، فكان على ثقة من حصول الأخرى ، ولكن سأل التعجيل وإنجازه من غير أذى يلحق المسلمين .

هذا ومما يجدر التنبيه إليه أن رسول الله (ﷺ) لم يكتف بالدعاء والتحريض والتوجيه ، وإنما شارك فى القتال عن على (رضى الله عنه) قال : « **ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله (ﷺ) وهو أقربنا من العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا** » رواه الإمام أحمد . وانتهت هذه الغزوة بنصر المؤمنين وهزيمة المشركين حيث قتل سبعون من صناديد قريش وأسر سبعون واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا .

وصدق «الله» حيث يقول :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ ﴾[1]

---

(١) الأنفال : ٩ .

أى متتابعين وكان نزولهم بشرى للمسلمين وتسكينا لقلوبهم وربطا عليها ، أما حقيقة النصر فليس من الملائكة ولا من قوتهم بل إنه من عند «الله» الغالب القاهر : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[1]

ويرى أكثر العلماء أن نزول الملائكة كان للقتال وللبشرى والطمأنينة والتثبيت ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾[2]

ويرى البعض أنه للبشرى والطمأنينة لقوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾[3]

والذى نرجحه هو أن البعض قد قاتل وأن أكبر الأعمال الحربية والقتالية كان للمسلمين ، وقد أراد «الله» تعالى أن يكون الهلاك بأيدى المؤمنين ليكون ذلك أنكى لقريش وأشفى لصدور المؤمنين

قال تعالى :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾[4]

---

(١) الأنفال : ١٠ . (٢) الأنفال : ١٢ . (٣) آل عمران : ١٢٦ . (٤) التوبة : ١٤ ، ١٥ .

من دروس غزوة بدر الكبرى

وقد كان لهذه الغزوة الهامة التى تعتبر أول معركة التقى فيها المسلمون مع أعدائهم من المشركين لقاء مسلحا كان لها دروسها وعبرها .. من ذلك :

- أن الإيمان الصادق يصنع الرجال الشجعان الذين يضحون فى سبيل «الله» ومن أجل نصرة دينهم وعقيدتهم .
- أن النصر من عند «الله» العزيز الحكيم ؛ فلا يركن أحد إلى قوته فحسب ولا إلى عدته بل لابد مع إعداد العدة من توثيق الصلة بـ «الله» والدعاء والاستغاثة به .

ثم ما ينبغى على المسلمين من التمسك بدينهم والدفاع عنه ، وتوحيد صفوفهم تجاه أعدائهم ، واعتصامهم جميعا بدين «الله» كما قال جل شأنه .

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[1]

واستجابة المسلمين لدعوة رسولهم (ﷺ) حين دعاهم وحرضهم ، فهرعوا لندائه ، وآثروه على أعز ما فى حياتهم ولم يهملوا نداءه ولم يتأخروا لحظة فى تلبية دعوته .

---

(١) آل عمران : ١٠٣

● ومن دروس هذه الغزوة : جانب المثالية الذى اتسمت به ومن ذلك حسن معاملة الأسرى وهى سمة تعلمها المسلمون من قرآنهم الذى يقول :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[1]

وفى هذه الغزوة قال رسول الله (ﷺ) لأصحابه بعد أن وزع بينهم الأسرى ، وعند رجوعهم إلى المدينة قال : « **اسْتَوصُوا بِهِم خَيْرًا** » وقال أبو عزيز بن عمير وكان من أولئك الأسرى : « كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز ، وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله (ﷺ) إياهم بنا ، فما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها فأستحى فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها » ومن سماحة الإسلام التى هى إحدى العبر من هذه الغزوة : منع التمثيل بالقتلى ، ومنع تعذيب الجرحى ، بل إن رسول الله (ﷺ) أمر فى غزوة بدر بدفن جثث القتلى من المشركين فى القليب وهو بئر جاف ودفنهم فيه .

● ومن أبرز دروس هذه الغزوة : «الشورى» وما لها من أثر فى نجاح القصد والوصول إلى الغاية ، ومما لا شك فيه أن الشورى

---

(١) الإنسان : ٨ .

من سمات الإيمان ولذا ذكرها «الله» تعالى بين الصلاة والإنفاق لأهميتها فقال سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]

وإذا استشار الإنسان أحدا من الناس فعلى المستشار أن يكون أمينا فى مشورته صادقا فى نصيحته ، وليعلم أن الشورى عندئذ أمانة فإن لم يشر بما هو نافع فقد خان الأمانة كما قال (ﷺ) :
« **الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ** » رواه ابن ماجه .

وعلى القيادة أن تستفيد بخبرة المتخصصين وأن تأخذ بمشورتهم ، كما صنع رسول الله (ﷺ) عندما نزل على رأى الحباب وغير موقع الجيش ، وقد كرم الرسول (ﷺ) الحباب صاحب هذه المشورة وقدر رأيه قائلا له : « **أُشرتَ بِالرَّأى** » .

---

(١) الشورى : ٣٨ .

غزوة بنَى سُلَيْمٍ «بالكُدْر»

وبعد غزوة بدر الكبرى ، غزا رسول الله (ﷺ) بنى سُليم واستعمل على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفارى ، أو ابن أم مكتوم .

فبلغ ماء من مياههم ، يُقال له «الكُدْر» ، فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا .. فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وأفدى فى إقامته تلك جلّ الأسارى من قريش . وكان السبب فى هذه الغزوة أن جموع بنى سُليم وعطفان تجمعوا يريدون مهاجمة المدينة ، وما إن علم الرسول (ﷺ) بما عزموا عليه إلا وخرج إليهم على رأس مائتين من المسلمين .

غَـزْوَةُ السُّـــوَيْقِ

سميت هذه الغزوة بهذا الاسم ، لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم وأطعمتهم هو السويق، وهو طعام تحمص فيه الحنطة أو الشعير وتطحن وقد تخلط بالسمن واللبن والعسل وتعجن ، وقد تخلط بالماء ، إذا لم يوجد شيء من ذلك . وكان أبو سفيان قد بدأ العدوان فى غزوة السويق فى شهر ذى الحجة .. عندما رجع القوم المنهزمون من قريش من غزوة بدر الكبرى نذر أبو سفيان - حين رجع إلى مكة - ألا يمسَّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (ﷺ) وهذا يدلنا على أن الغسل من الجنابة كان عندهم قبل الإسلام من بقايا دين إبراهيم عليه السلام كالحج والزواج .

لقد خرج أبو سفيان فى مائتى راكب من قريش فنزل على جبل يقال له «ثيْب» من المدينة على بعد بريد ثم خرج ليلا حتى أتى بنى النضير فأتى حُيَى بن أخطب فضرب على بابه ، فأبى أن يفتح له وخافه ، فانصرف إلى سلام مِشْكم سيد بنى النضير ، فقام بضيافته وأعلمه من سرّ القوم ما أعلمه ، فخرج حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة فحرقوا بعض النخيل وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له فى حرث لهما ثم انصرفوا راجعين ..

فخرج رسول الله (ﷺ) فى طلبهم ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر وهو أبو لبابة حتى بلغ قَرْقَرة الكُدْر وهو موضع بينه وبين المدينة ثمانية برد .. ولكنه انصرف راجعا فقد فاته أبو سفيان وأصحابه .. وقد قال المسلمون حين رجع بهم رسول الله ((ﷺ)) : **يارسول الله أتطمع لنا أن تكون غزوة ؟ قال : «نعم»** .

غَـزْوَةُ ذِى أمَرَ وتسمّى : «غزوة غطفان»

وبعد عودة رسول الله (ﷺ) من غزوة «السويق» مكث فى المدينة بقية شهر ذى الحجة ، ثم غزا نجدا ، يريد غطفان واستعمل على المدينة عثمان بن عفان .. ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا ، فلبث بها شهر ربيع الأول كله .

وكان السبب فى هذه الغزوة أن بنى ثعلبة ومحارب وهما حيان من غطفان تجمعوا يريدون الإغارة على المدينة فخرج الرسول (ﷺ) فى خمسين وأربعمائة من أصحابه ، وساروا حتى بلغوا ماء يسمى (ذا أمر) فعسكروا فى هذا الموضع وأمطرت السماء وشغل المسلمون بأمورهم ورأى المشركون أن يأخذوا الرسول (ﷺ) على غرّة فبعثوا رجلا يسمى (دعثورا) ويقال هو غورث بن الحارث ليقتل النبى (ﷺ) ، فلما رآه النبى (ﷺ) واقفا على رأسه بالسيف وقال : **مَنْ يمنعك منى يا محمد** ؟ قال النبى (ﷺ) : الله ، فرعب الرجل وسقط السيف من يده ، فتناوله الرسول (ﷺ) ورفعه وقال له : «**من يمنعك منى** ؟» فقال الرجل : **لا أحد** ، فعفا عنه النبى (ﷺ) فما كان من الرجل إلا أن أسلم وفى رواية : **أن الرسول** (ﷺ) **قال للرجل : ومن يمنعك منى ؟ فقال : كن خير آخذ ، قال : «تشهد أن لا إله إلا الله ؟» قال : لا ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فعفا عنه النبى** (ﷺ) **وخلى سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس .**

وروى أنه نزل فى هذا قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1]

---

(١) سورة المائدة : (١١) .

غزوة الفُرُعِ من بحرَان

غزا رسول الله (ﷺ) ، يريد قريشا ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، حتى بلغ بحران معدنا بالحجاز من ناحية الفُرُع ، وهى قرية من ناحية المدينة ، فأقام بها رسول الله (ﷺ) شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا .

مَوقِفُ بَنِى قَيْنُقَاع

لقد جمع رسول الله (ﷺ) بنى قينقاع فى سوقهم ، وقال لهم : **«يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقُريشٍ من النِّقْمَةِ وأسْلِمُوا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم»** قالوا : **«يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .**

قال ابن إسحاق : **فحدثنى مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد ابن جبير أو عن عكرمة عن ابن عباس قال : ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم :**

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى الْأَبْصَٰرِ (١٣) ﴾[1]

---

(١) سورة آل عمران : (١٢ ، ١٣) .

قال ابن إسحاق : «وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أن بنى قينقاع كانوا أول يهود تقضوا ما بينهم وبين رسول الله (ﷺ) ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ..

وأما عن سبب الحرب بينهم وبين المسلمين : فقد قال ابن هشام : وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مَخْرمة عن أبى عون قال : كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلَبٍ لها — أى ما يُجلب عادة للسوق ليباع — فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى تصرف خبيث فعقد طرف ثوبها إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وهكذا ترى أن اليهود كانوا أول من نقض العهد ، كما كانوا السبب فى الشر بمثل ما تصرف به هذا الصائغ من تصرف سيىء مع امرأة عربية مسلمة نشأت على خلق الإسلام والعفة ، هذا التصرف الخبيث أثار حفيظة المسلمين مدافعين عن عرضهم مهما كلفهم ذلك من فداء وتضحية وكما يقول القائل :

لايسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذَى
حتى يُراقَ على جَوَانِبِه الدَّمُ

وفى الحديث : «ومَنْ قُتِلْ دُون عِرْضِه فهو شَهِيدٌ» ..

موقف ابنُ أبيٍّ

وبعد أن حاصرهم الرسول (ﷺ) حتى نزلوا على حكمه ، قام عبد الله بن أبى بن سلول فقال : **يا محمد أحسن فى موالِيّ** - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله (ﷺ) ، فقال : **يا محمد أحسن فى موالى** ، فأعرض عنه ، فأدخل يده فى جيب درع رسول الله (ﷺ) ، فقال له رسول الله (ﷺ) : «**أرسلنى**» وغضب رسول الله (ﷺ) حتى رأوا لوجهه ظُلَلا - أى تغير وجهه من شدة الغضب ، ثم قال : «**ويحك أرسلنى**» قال : **لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ ، أربعمائة حاسر** - أى لا درع لهم - وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود وتحصدهم فى غزاة واحدة إنى والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله (ﷺ) : «**هم لك**» وكانت محاصرة الرسول (ﷺ) إياهم خمس عشرة ليلة ، واستعمل على المدينة بشير ابن عبد المنذر .

تَبرُّؤ ابنِ الصّامتِ من حِلْفِهِمْ

لما حاربت بنو قينقاع رسول الله (ﷺ) تعصّب لهم عبد الله بن أُبى بن سلول ، أما عبادة بن الصامت فقد كان أحد بنى عوف ولهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أُبى ، ولكن عبادة تبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله (ﷺ) من حلفهم وقال :

«يارسول الله ، أتولى الله ورسوله (ﷺ) والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم » وقد نزل فى شأنه وشأن ابن أُبى قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) ﴾[1]

وفى شأن تبرؤ عبادة بن الصامت من بنى قينقاع ومن ولايتهم وحلفهم :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾[2]

---

(١) سورة المائدة : (٥١ ، ٥٢) .

(٢) سورة المائدة : (٥٦) .

سرية زيد بن حارثة

بعث رسول الله (ﷺ) زيد بن حارثة فى سرية ، فأصاب عير قريش وفيها أبو سفيان بن حرب على القَردة ، وهو ماء من مياه نجد : فإن قريشا خافت الطريق التى كانوا يسلكونها إلى الشام بعد غزوة بدر وما كان فيها فسلكوا طريق العراق .

فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة ، فلقيهم زيد بن حارثة بسريته على ذلك الماء فأصاب العير وما فيها وقدم بها على رسول الله (ﷺ) ، وفرَّ الرجال ، وعادت السرية بالغنائم .

غـــزوة أحـــد

لما نصر «الله» جنده فى غزوة بدر الكبرى ، اجتمع زعماء قريش على أن يأخذوا بالثأر لقتلاهم ، وأن يستعينوا بعير أبى سفيان وما فيها من أموال لتجهيز الجيش كما استعانوا بعدد كبير من النساء يمنعن من يحاول الفرار من رجالهم . وكلموا أبا سفيان بن حرب وكل من كانت له تجارة فى تلك العير من قريش ، وقالوا : يامعشر قريش إن محمدا قد وتركم[1] وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا . ففعلوا ، قال ابن إسحاق : ففيهم - كما ذكر لى بعض أهل العلم - أنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2]

فاجتمعت قريش وانضم إليهم الأحابيش ، وهم الذين اجتمعوا معهم وانضموا إليهم من غير العرب .

ولما علم رسول الله (ﷺ) ، والمسلمون بأنهم قد نزلوا فى المكان

(١) وتر فلانا : قتل حبيبه وأصابه بمكروه .
(٢) الأنفال : ٣٦ .

الذى نزلوا فيه قال : **إنّى قد رَأيتُ و«الله» خَيرًا ، رَأَيتُ بقرًا تُذبح، ورأيتُ فى ذُبابِ سيفى ثلما ، ورأيتُ أنّى أَدخلتُ يَدِى فى دِرعٍ حصينَةٍ ، فأولتها المدينة .**

قال ابن هشام : وحدثنى بعض أهل العلم ، أن رسول الله (ﷺ) قال : **«رأيتُ بقرًا لى تُذبَحُ ؟ قال : فأمَّا البقرُ فهى ناسٌ من أصحَابى يُقتَلُونَ ، وأمَّا الثلم الَّذِى رأيتُ فى ذبابِ سيفى فهو رَجُلٌ مِن أَهلِ بيتى يُقتَلُ»** .

قال ابن إسحاق : فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ، وكان رأى عبد الله بن أُبىٍّ بن سلول مع رأى رسول الله (ﷺ) يرى رأيه فى ذلك ، وألا يخرج إليهم ، وكان رسول الله (ﷺ) يكره الخروج ، فقال رجال من المسلمين ، ممن أكرم «الله» بالشهادة يوم أحد وغيره ممن كان فاته بدر : يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا ؟ فقال عبد الله بن أُبىّ بن سلول : يارسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا ، فلم يزل الناس

الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم برسول الله (ﷺ) حتى دخل رسول الله (ﷺ) بيته ، فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مات فى ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له : مالك بن عمرو ، أحد بنى النجار ، فصلى عليه رسول الله (ﷺ) ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله (ﷺ) ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم رسول الله (ﷺ) ، قالوا : يارسول الله : استكرهناك ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد (صلى الله عليك) ، فقال رسول الله (ﷺ) : **مَا يَنبغِى لِنَبِىٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَن يَضَعَهَا** ، حتَّى يُقَاتِلَ ، فخرج رسول الله (ﷺ) فى ألف من أصحابه .

واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس .

وقال ابن إسحاق : حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة واحد ، انخذل عنه عبد الله بن أُبَىّ بن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام ، يقول : يا قوم ، أُذكركم «الله» ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا ندرى أنه يكون قتال . قال : فلما استعصوا عليه

وأبوا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعدكم «الله» أعداء «الله» فسيغنى «الله» عنكم نبيه .

وفى شأن هؤلاء الذين تراجعوا وانخذلوا نزل قول « الله » تعالى :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ﴾[١]

وفى هاتين الآيتين وضح « الله » تعالى الحكمة العالية فيما أصاب المسلمين فى هذه الغزوة من فرار أولئك المنافقين وأن هذا كان بقضاء «الله» تعالى ليظهر المؤمنون الثابتون ، والمنافقون الفارون .

وقد استدل العلماء بذلك على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون فى حال أقرب إلى الكفر ، وفى حال أقرب إلى الإيمان لقول الله تعالى :

﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ ﴾[٢]

ولما رجع ابن أُبىّ وأصحابه همت بنو سلمة وبنو حارثة أن ترجعا

---

(١) آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧ .　　(٢) آل عمران : ١٦٧ .

ولكن «الله» سبحانه وتعالى قد ثبتهما وعصمهما وفى هذا نزل قوله تعالى :

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

وفى منتصف شهر شوال سار رسول الله (ﷺ) فى ألف من أصحابه ورجع ابن أبى بثلث الجيش كما سبق ، وتهيأ رسول الله (ﷺ) للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه ، وأمر على المدينة عبد الله بن جبير وكان الرماة يومئذ خمسين رجلا فقال لهم : **«انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم ، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم» .**

وأعطى اللواء مصعب بن عمير . وأنزل رسول الله (ﷺ) الجيش فى مواقعه وجعل منه ميمنة وميسرة ونظم المسلمين وفى هذا يقول «الله» تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾ (٢)

قال ابن إسحاق : وتعبأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ،

---

(١) آل عمران : ١٢٢ .   (٢) آل عمران : ١٢١ .

ومعهم مائتا فرس قد جنبوها - أى جعلوها - إلى جنوبهم عند حاجتهم إليها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل .

وقال رسول الله (ﷺ) : **مَن يأخذ هَذَا السَّيفَ بِحقِّهِ ؟** فقام إليه رجال ، فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، أخو بنى ساعدة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : **أن تضربَ به العدوَّ حتَّى يَنحَنِى** ، قال : أنا آخذه يارسول الله بحقه ، فأعطاه إياه . وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، إذا كانت ، وكان إذا أعتمّ بعصابة له حمراء ، فاعتصب بها علم الناس إنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله (ﷺ) أخرج عصابته تلك ، فعصب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفين .

فقال رسول الله (ﷺ) حين رأى أبا دجانة يتبختر : «**إنَّها لِمشيَّةٌ يبغضها «الله» إلاَّ فى مِثلِ هَذَا الموطِنِ**» .

ولما أخذ أبو دجانة السيف من يد رسول الله (ﷺ) تعصَّب وخرج قائلا :

أنا الذى عاهدنى خليلى
ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكبول
أضرب بسيف الله والرسول

أي عاهده ألا يقاتل فى المؤخرة وإنما فى المقدمة ، فكان أبو دجانة لا يواجه مشركا إلا قتله ، وقيل : الكبول بالموحدة أى القيود .

وابتدأت المعركة بالمبارزة ثم التحم الفريقان ، وقاتل حمزة بن عبد المطلب فأبدى ضروبا من الشجاعة لها أكبر الأثر بحيث ما كان أحد يقدر أن يهوى إليه ، ولكن كمن له وحشى لينال منه يقول وحشى : كنت غلاما لجبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم «بدر» فلما سارت قريش إلى «أحد» قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت حر ، قال : فخرجت مع الناس وكنت رجلا أقذف بالحربة قذف الحبشة ، قل ما أخطىء بها ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس كأنه الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء فوا «لله» إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى ، فلما دنا هززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته — تحت سرته — حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات ، ثم أخذت حربتى ورجعت ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق .

بطولات ومواقف فى يوم أحد :

ولقد كان للإيمان أثره فى نفوس المجاهدين المسلمين فى هذه الغزوة ، فقد اجتهدوا فى قتال أعدائهم ، وأسرعوا إلى تلبية نداء المعركة ، حتى إن أحدهم وهو حنظلة بن أبى عامر لما سمع نداء المعركة وهو فى عرسه خرج مسرعا للجهاد فى سبيل «الله» حتى لقى ربه راضيا مرضيا ، ونال الشهادة ، وهو جُنبٌ فكرمته الملائكة وغسَّلته . عن حنظلة بن أبى عامر أخى بنى عمرو بن عوف : أنه التقى هو وأبو سفيان بن حرب يوم «أحد» ، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود وكان يقال له ابن شعوب قد علا أبا سفيان فضربه شداد فقتله ، فقال رسول الله (ﷺ) : «**إنَّ صَاحِبَكُم** – يعنى حنظلة – **لَتغسِّلُهُ الملائِكَةُ . فاسْألُوا أَهْلَهُ .. مَا شَأْنُهُ ؟** » . فسُئِلَت صاحبته فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة ، فقال رسول الله (ﷺ) : «**لِذَلِكَ غسَّلَتْهُ الملائِكَةُ**» .

ومن بطولات هذا اليوم ما رواه البيهقى بسنده عن جابر أن المشركين رهقوا رسول الله (ﷺ) وهو صاعد فى الجبل جماعة من الأنصار ومعهم أبو طلحة ، فقال رسول الله (ﷺ) : «**ألاَ رَجُلٌ لِهَؤُلاءِ ؟**» فقال أبو طلحة: أنا ، فقال : **كَمَا أَنْتَ يَا أبا طَلْحَة**، فقال رجل من الأنصار ، أنا ، فقاتلهم حتى قُتِل ، فلحقه المشركون ، ومازال يقول : **ألاَ رَجُلٌ لِهَؤُلاءِ ؟** وأبو طلحة يقول : أنا ، فيؤخره ، ويتقدم

أحد الأنصار فيقاتلهم حتى يُقتل، حتى قُتِلوا جميعا ، ثم قاتلهم أبو طلحة فقاتل مثل قتال جميع من كانوا قبله ، وأصيبت أنامله فقال (حس) فقال رسول الله (ﷺ) : **«لَوْ قُلْتَ بِسْمِ «الله» لَرَفَعَتْكَ الملائِكَةُ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ حَتَّى تَلِجَ بِكَ فِى جَوِّ السَّمَاءِ»** .

ومن البطولات والمواقف العظيمة فى هذا اليوم ما رواه الإمام مسلم بسنده . عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم «أحد» انهزم ناس من الناس عن النبى (ﷺ) - وأبو طلحة بين يدى النبى (ﷺ) مجوب عليه بحجفه - قال : وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع ، وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثا ، قال : فكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل ، فيقول انثرها لأبى طلحة ، قال : ويشرف نبى الله (ﷺ) ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : يانبى الله - بأبى أنت وأمى - لا تشرف لا يصبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك ، قال : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما ، تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه فى أفواههم ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان تفرغانه فى أفواه القوم ، ولقد وقع السيف من يدى أبى طلحة إما مرتين وإما ثلاثا من النعاس .

وفى هذا الحديث الشريف بيان لما قامت به المرأة المسلمة فى ميادين الجهاد ، وتوضيح لما شرعه الإسلام لها من القيام ببعض الأعمال الهامة

التى لا تقل أثرا عن نتيجة القتال فى سبيل «الله» ، فكانت المرأة تسقى الماء وتداوى الجرحى ، وتناول السهام وتثير الحمية ، وتقوم على خدمة الجرحى وتمريضهم ، وهذا نموذج من تلك النماذج الرائعة .

قال أنس : لما كان يوم «أحد» انهزم ناس من الناس عن النبى (ﷺ) ، أى بعضهم ، وهم الذين تسببوا فى هزيمة يوم «أحد» حيث خالفوا أمر النبى (عليه الصلاة والسلام) وهؤلاء هم فرقة الرماة الذين أمرهم الرسول (ﷺ) بالوقوف خلف الجيش لحمايته ، ولكنهم لما رأوا انتصار المسلمين أول الأمر شرعوا فى أخذ الغنائم ، فانتهز خالد ابن الوليد الفرصة وهو يومئذ على غير الإسلام – وشد عليهم من الخلف . وهنا أدرك المسلمون نتيجة مخالفة أمر رسولهم (ﷺ) ، وأن المجاهد ينبغى عليه ألا يضع عينه على غير الجنة ، فما الغنائم إلا عَرَض زائل .

وقوله : «أبو طلحة بين يدى النبى (ﷺ) **مُجَوِّب** بضم أوله وفتح الجيم وتشديد الواو المكسورة : مترس عنه ليقيه سلاح الكفار ، يقال للترس إذا كان من جلود ليس فيه خشب **وحَجَفه** بفتح الحاء والجيم ودرقه بفتحات **والجمع حجف** . وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع :

قال : فكان الرجل يمر معه **الجعبة** من النبل ، بفتح الجيم **وهى الكنانة** التى تجعل فيها السهام .

فيقول : انثرها لأبى طلحة ، قال : ويشرف نبى الله (ﷺ) ينظر إلى القوم : **ويشرف** : مضارع «**أشرف**» يقال : أشرف المكان وعلاه ، وأشرف عليه : اطلع عليه من فوق

فيقول طلحة : يا نبى الله - بأبى أنت وأمى - لا تشرف لا يصبك سهم من سهام القوم ، وهذا إشفاق وحب منه لرسول الله (ﷺ) ، وقوله : نحرى دون نحرك : «النحر» هو أعلى الصدر ، وهذه الجملة دعائية والمراد بها : جعل «الله» نحرى أقرب من نحرك إلى العدو حتى أصاب دونك . وهكذا كان حبهم لنبيهم واقتداؤهم وتضحيتهم فى سبيله .

«ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم» : أما عائشة فهى أم المؤمنين وزوج رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ، وأما أم سليم : فهى أم أنس بن مالك وهى من الصحابيات اللائى جاهدن فى سبيل «الله» ، «**وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما**» والتشمير : رفع الرداء تأهبا للجد فى السعى والعمل «**وخدم**» جمع خدمة ، وهى الخلخال ، «**والسوق**» جمع ساق ، **ومعنى العبارة** : أنه كان يرى موضع الخلخال .

ورؤيته لهذا الموضع من الجسم ، وإن كان عورة ، إلا أن النظرة حصلت فجأة منه دون قصد وتعمد ولم يحصل منه دوام النظر ، وليس فى كشف السيدتين الطاهرتين عن هذا الموضع ما يوهم شبهة ،

حاشا «لله» فهما من الطهارة بمكان بحيث لا يرتاب فى شأنهما أحد ، وإنما كان ذلك منهما قبل الأمر بالحجاب ، فإن حدوث ذلك كان فى يوم أحد من السنة الثالثة قبل نزول الحجاب ، الذى كان فى السنة الخامسة للهجرة ، أو أنه يباح فى وقت الحرب مالا يباح فى غيره ، لأن الحرب ضرورة .

«تنقلان القرب على متونهما» وفى رواية البخارى : تنقزان بضم القاف ومعناها : تحملان ، **والقرب** : جمع قربة وهو ما يحمل فيه الماء من الجلد .

وقيل فى معنى **تنقزان** : تقفزان ، والقفز هو الوثب ، لإنقاذ الجريح ، وإسعاف الظمآن ، وعلى هذا المعنى يكون قوله : «القرب» منصوبا على نزع الخافض أى تقفزان بالقرب .

على متونهما : أى على ظهورهما ، وقوله : (ثم تفرغانه فى أفواههم .. إلخ) والضمير فى (تفرغانه) للماء وفهم من سياق العبارة ، لأن القربة إناء المياه ، ويراد بالقوم : الجرحى والعطشى من المقاتلين . والجملة كناية عن مداومة كل منهما واستمرارهما ، **وبدراسة هذه النماذج من نساء الإسلام يتبين لنا :**

١ — حكم جهاد المرأة .

٢ — كيفية اشتراكها فى ميدان القتال .

٣ — ما أحرزته المرأة المسلمة من سبق .

١ - حكم جهاد المرأة :

لم يحرم الإسلام المرأة من كرامة الجهاد ومثوبته ، ولم يمنعهن أن يشاركن بسقى الماء ومداواة الجرحى ، كل ذلك مع المحافظة عليهن وعدم الانكشاف والاختلاط المحرم بالرجال .

وهناك جهاد بالمال لإعداد القوة ، وتجهيز الجيوش ، وهناك جهاد باللسان لإثارة الحمية ودفع الشبه ورد الإشاعات والدعوة إلى الجهاد ، وهذه الأنواع يؤدى كل من الرجل والمرأة فيها الرسالة اللائقة بحاله ، ويقوم حيالها بما يمكنه من عمل .

أما الجهاد بالسلاح ، والاشتراك فى ضرب العدو فى الميدان فهذا لا يتفق مع طبيعة المرأة وتكوينها ، ولذا لم يفرضه الإسلام عليها ، ولئن شاركت بعض النساء فى الجهاد فهذا تطوع منهن وليس مفروضا كما هو الحال بالنسبة للرجال حيث فرض عليهم .

٢ - كيفية اشتراك المرأة فى ميدان القتال :

وقد وضح هذا الحديث كيفية اشتراك المرأة فى ميدان القتال ، وأنه يمكنها أن تقوم بدور هام ، هو إحياء الحمية ، والقيام بالتمريض وسقى الماء وكثير من المهام التى يحتاج إليها الجيش ، فتوفر على الجيش قيام بعض الرجال بهذا العمل ، وتقوم هى به ، ليؤدى جميع أفراد الجيش المهمة القتالية على أكمل وجه .

٣ - ما أحرزته المرأة المسلمة من سبق :

وقد أحرزت المرأة المسلمة - بدلالة هذا الحديث وغيره - سَبْقًا فى ميدان الجهاد والشرف ، لم تحرزه غيرها من الغربيات ، ولكم كان للمرأة المسلمة بطولات فذة وأمثلة رائعة فى التاريخ الإسلامى ، حيث نهضت مع الرجل ، فهاجرت فى سبيل «الله» متحملة مرارة الفراق والغربة ، وخرجت فى كثير من الغزوات ، وهذه أم عطية (رضى الله عنها) تقول : غزوت مع النبى (ﷺ) سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم ، فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى ، بل إن بعض النساء المسلمات كن يحملن السلاح دفاعا عن النفس ويجاهدن بأنفسهن جهادا مشكورا مهما كلفهن ذلك ، حتى سجل لهن التاريخ صفحات مشرقة بالبطولة ، تقول أم سعد بن الربيع : دخلت على أم عمارة نسيبة فقلت لها : يا خالة أخبرينى خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله (ﷺ) وهو فى أصحابه والدولة والريح - أى الغلبة والنصر - للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله (ﷺ) فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلىَّ فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ، فقلت : من أصابك بهذا ، فقالت : ابن قمئة أقمأه «الله» - أى أذله - لما ولى الناس عن رسول الله (ﷺ) أقبل يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس

ممن ثبت مع رسول الله (ﷺ) ، فضربنى هذه الضربة ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو « الله » كانت عليه درعان ، ولاستبسالها هذا يوم أحد ، وموقفها المشرف قال الرسول (ﷺ) : **لَمقَامُ نَسِيبةَ بِنتِ كَعْبِ الْيَوم خَيْرٌ مِنْ مقَامِ فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ** . وَقَالَ عَنْهَا أيضا : **مَا الْتَفتُّ يَمِينًا وَلا شمالاً إلا وأنا أَرَاهَا تُقَاتِلُ دُونِى** .

وروى الإمام أبو داود قال : حدثنا عبد الله بن محمد النفيلى حدثنا أبو إسحاق قال : سمعت البراء يحدث قال : جعل رسول الله (ﷺ) على الرماة يوم أحد – وكانوا خمسين رجلا – عبد الله بن جبير ، وقال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، قال : فهزمهم «الله» قال : فأنا والله رأيت النساء يسندن على الجبل . فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم ، فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال رسول الله (ﷺ) ؟ .

قالوا : و « الله » لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فأتوهم ، فصرفت وجوههم وأقبلوا منهزمين .

ولقد تحقق النصر للمسلمين فى بادىء الأمر ، لولا ما حدث بعد ذلك من ترك الرماة المواقع وتحولهم عنها ، وكان هذا بسبب اختلافهم منهم من رأى ألا يبرح المكان سواء انتصروا أو انهزموا ومنهم من

رأى أن الأمر بعدم ترك المكان إنما هو وقت القتال أما وقد انتهى فليذهبوا لجمع الغنائم ، فتحولوا وأتاهم أعداؤهم من الخلف وأحاطوا بالرسول (ﷺ) ودافع المسلمون عن رسولهم (ﷺ) ومنعوه من المشركين ، ولكن كسرت رباعيته وشج وجهه وهو يقول : **لَنْ يُفلحَ قومٌ شجُّوا وَجه نَبيِّهم وهو يَدعُوهم إلى «الله»** ، وكُسِرَت رُبَاعِيَّتُه اليمنى السفلى ، وجرحت شفته العليا وجرح ابن قمئة وجنته ودخلت حلقتان من المغفر فى وجهه الشريف فأخرج أبو عبيدة عامر بن الجراح إحداهما بأسنانه فسقطت ثنيته ، ثم أخرج الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فلقب بذى الثنيتين .

وفى هذه الغزوة انطلقت إشاعة قتل النبى (ﷺ) ، فذهل كثير من المسلمين ومنهم من ولى هاربا ، ثم رجع استحياء وفى شأنهم نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [1]

ولكن كانت هناك بطولات تجبر ما كان من قصور البعض ، وتعتذر إلى « الله » عن فرارهم . روى الإمام البخارى فى صحيحه - بسنده - عن أنس (رضى الله عنه) قال : غاب عمى أنس بن النضر

---

(١) آل عمران : ١٥٥ .

عن قتال بدر فقال يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن «الله» أشهدنى قتال المشركين ليرين «الله» ما أصنع ، فلما كان يوم أحد ، وانكشف المسلمون ، قال : اللهم إنى اعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يارسول الله ما صنع أنس فوجدنا بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1]

ولقد ثبت رسول الله (ﷺ) ، وظل يجاهد ويدافع من كل جهة وهو يقول : (**إلى عِبَاد « الله » إِلَى عِبَادَ «الله»**) فتجمع حوله جمع من أصحابه فسار بهم حتى وصل إلى الصخرة التى فوق الجبل .

وبعد أن انتهت المعركة ، أشرف أبو سفيان بن حرب وقال أفى القوم محمد ؟ فقال لهم النبى : **لاَ تُجِيبوهُ** ، أفى القوم ابن أبى قحافة ؟

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

أفى القوم ابن الخطاب ؟ والنبى (ﷺ) يقول : **لاَ تُجِيبوهُ** ، فقال أبو سفيان : إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه أن قال : كذبت و «الله» يا عدو «الله» إن الذى عددت لأحياء وقد بقى لك ما يسوؤك ، فقال يوم بيوم بدر والحرب سجال ، فقال له عمر : لا سواء ؛ قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ..

ثم قال أبو سفيان : اعل هبل فقال النبى (ﷺ) :

أجيبُوهُ ، قالوا : ما نقول ؟ قال : (قولوا : «الله» **أَعَلى وَأَجَلّ**) فقال أبو سفيان : لنا العزى ، ولا عزى لكم فقال النبى : **أجيبوه** . قالوا : ما نقول ؟ قال : (قولوا : **«الله» مَولاَنا وَلاَ مَولَى لكم**) ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله (ﷺ) لرجل من أصحابه : (**قل نعم هو بيننا وبينك موعد**) .

واستشهد فى غزوة أحد من المسلمين سبعون منهم أربعة من المهاجرين وقيل ستة والباقى من الأنصار ومن المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وقتل من المشركين عشرون ، وسأقدم نبذة عن الصحابى مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين يوم أحد .

مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين

من الرعيل الأول ، ومن الصفوف المتقدمة من سلف هذه الأمة الخيرة .. رجال صدقوا ما عاهدوا «الله» عليه .. نذروا أرواحهم «لله» تعالى ، ولدعوة الحق ، فجاهدوا فى «الله» حق جهاده .. من هؤلاء : الصحابى الجليل : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى .

كان من الصحابة الأجلاء .. والدعاة الفضلاء .. والمجاهدين الأوفياء . إنه أعطر أهل مكة كما وصفه المؤرخون .

وكان رسول الله (ﷺ) يذكره ويقول : «**مَا رَأيتُ بمكَّةَ أحدًا أحسنَ لمة ، ولاَ أرق حلَّة ، ولاَ أنعم مِن مُصعَبِ بنِ عُمير**» .

إنه من السابقين للإسلام ، بلغه أن رسول الله (ﷺ) يدعو إلى الإسلام فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، فدخل عليه . فأسلم وصدق به ، وخرج فكتم إسلامه ، خوفا من أمه وقومه .

وكان مصعب يختلف إلى رسول الله (ﷺ) سرًّا ، فبصر به عثمان ابن طلحة يصلى ، فأخبر أمه وقومه ، فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوسا حتى خرج إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا .

عُرِفَ بمكارم الأخلاق ، وشهد له الرسول (ﷺ) ، وشهد له رفاقه وأقرانه بحسن الخلق ، عن عبد الله بن عمر بن ربيعة عن أبيه قال : كان مصعب بن عمير لى خدنا وصاحبا ، منذ يوم أسلم إلى أن قتل - رحمه «الله» - بأحد ، خرج معنا إلى الهجرتين جميعا بأرض الحبشة ، وكان رفيقى من بين القوم ، فلم أر رجلا قط كان أحسن خلقا ولا أقل خلافا منه .

وعرف بحبه الشديد «لله» ورسوله ، ومنذ دخل فى الإسلام ، وخالطت بشاشته قلبه ، وهو يتفانى فى مرضاة ربه ، عبادة ، وتقى ، وجهادا ، ودعوة فى سبيل «الله» .

لقد كان قبل دخوله الإسلام فتى مكة شبابا وجمالا ، ويلبس أحسن الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة .. ولكنه ضحى بكل نعيم ومتعة ، وضحى بكل زخرف وزينة ، فى سبيل العقيدة الصحيحة ، ومن أجل الدعوة فى سبيل «الله» .

لقد تحمل الاضطهاد والحبس ، والقسوة والغلظة ، ولم تمتد عيناه بعد إلى زينة الحياة الدنيا ، بعد دخوله فى الإسلام ، وبعد يقينه بأنها زينة زائلة ، وزخرف لا بقاء له ، وأن سعادته وهناءته إنما تتمثل فى الإيمان بـ «الله» تعالى ، وفى حب «الله» سبحانه ، وفى حب رسوله (صلوات الله وسلامه عليه) .

ذات يوم - والنبى (ﷺ) جالس فى أصحابه - يُقبِلُ مصعب ، وعليه قطعة نمرة ، قد وصلها بإهاب ، قد ردنه ثم وصله إليها ، فلما رآه أصحاب النبى (ﷺ) ، نكسوا رؤوسهم رحمة له ، ليس عندهم ما يغيرون عنه ، فسلم فرد عليه النبى (ﷺ) وأحسن عليه الثناء ، وقال : الحمد «لله» ليقلب الدنيا بأهلها ، ولقد رأيت هذا - يعنى مصعب بن عمير - وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة فى الخير ، فى حب «الله» ورسوله .

مصعب الداعية

بعد أن انصرف أهل العقبة الأولى - الاثنا عشر - وانتشر الإسلام فى دور الأنصار ، أرسلت الأنصار رجلا إلى رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) ، وكتبت إليه كتابا :

«ابعث إلينا رجلا يفقهنا فى الدين ، ويقرئنا القرآن» فبعث إليهم رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) ، الصحابى الجليل مصعب ابن عمير فقدم عليهم مصعب ، نزل على سعد بن زرارة ، ونهض بمهمته العالية على أكمل وجه ، فلم يكن فقط - يقرئهم القرآن الكريم ، وإنما كان يقرئهم ويفقههم ، ويدعو إلى «الله» على هدى وبصيرة .. لقد دعا إلى الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن الكريم ، فكان يسلم الرجل والرجلان ، حتى ظهر الإسلام ، وفشا فى دور الأنصار كلها والعوالى ..

واستمر (رضى الله عنه) يقرئهم القرآن ، ويعلمهم ، ويعظهم ويرشدهم .. ثم كتب إلى رسول الله (ﷺ) أن يجمع ، فأذن له ، وكتب إليه : **انظُر مِنَ اليومِ الَّذِى يَجهرُ فيه اليهودُ لِسَبْتِهِم فَإِذا زَالتِ الشمسُ فازدَلِف إلى «الله» فيه بِرَكعَتَينِ وَاخطُب فِيهِم .**

فجمع بهم مصعب بن عمير فى دار سعد بن خيثمة ، وهم اثنا عشر رجلا فهو أول من جمع فى الإسلام جمعه .

وروى أن أول من جمع بهم : أسعد بن زرارة .

وعندما خرج من المدينة مع السبعين الذين وافوا رسول الله (ﷺ) فى العقبة الثانية .. فقدم مكة جاء منزل رسول الله (ﷺ) أولا ، ولم يقرب منزله . فجعل يخبر رسول الله (ﷺ) فسُرَّ رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) بما أخبره عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام .

ولما علمت أمه بقدومه أرسلت إليه تقول : يا عاق أتقدم بلدا أنا فيه لا تبدأ بى ؟

فقال : « **ماكنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله (ﷺ)** » .

هكذا كان إحساسه الصادق ، وهكذا كان نبض قلبه المؤمن . إنه يحب «الله» ورسوله ، إنه أخلص للإسلام ورسول الإسلام ، وامتلأ قلبه بالحب والتفانى فى سبيل الدعوة ، فشغله هذا الحب وجعله

يؤثر «الله» ورسوله على كل شيء : على الأهل ، وعلى المال ، وعلى كل مافى الحياة من زخارف وطيبات .

وصدق مصعب ، وصدق إيمانه وبرهانه على هذا الإيمان ، بحبه لرسول الله (ﷺ) أكثر من كل أحد ، وأكثر من كل شيء فلقد قال (صلوات الله وسلامه عليه) : «**لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين**» . رواه مسلم .

وقال (صلوات الله وسلامه عليه) : «**لاَ يؤمن أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِن وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين**» رواه مسلم .

وقد قال ابن بطال : ومعنى الحديث أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبى (ﷺ) آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين . لأن به (ﷺ) استنقذنا من النار ، وهدينا من الضلال .

ولننظر إلى قوة إيمان هذا الداعية الفذ ، وإلى موقفه مع أمه بعد ذلك .. لقد ذهب إلى أمه ، فماذا قالت له ؟

إنها تريد أن تثنى عزمه ، وتحاول أن تكشف مدى ما هو عليه من هذا الدين ..

فقالت له : إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ؟

فأجابها موضحا – فى إيجاز شديد – أنه على دين حق رضيه

«الله» ، هو الدين القيم ، فقال : أنا على دين رسول الله (ﷺ) وهو الإسلام الذى رضى «الله» لنفسه ولرسوله .

فقالت له : ما شكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ، ومرة بيثرب ؟

فقال : أفر بدينى أن تفتنونى . فأرادت حبسه ، فقال : لئن أنت حبستنى لأحرضن على قتل من يتعرض لى ، فقالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكى ، فقال مصعب : يا أُمه إنى لك ناصح عليك شفيق ، فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله قالت : والثواقب لا أدخل فى دينك فيزرى برأيى ، ويضعف عقلى ، ولكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على دينى .

مصعب المجاهد

وكما كان لهذا الصحابى الجليل دوره البارز فى الدعوة إلى الإسلام وتوجيه الناس وتعليمهم وإرشادهم ، فإن له أدوارًا بطولية فى ميدان الجهاد فى سبيل «الله» ، وهذه الأدوار وغيرها تعطينا صورة واضحة لما كان عليه صحابة الرسول (ﷺ) من علم ينتفعون به وينفعون غيرهم ويرشدونهم ، ومن استثمار العلم بالتطبيق والعمل ، ومن مشاركتهم فى ساحات الجهاد فى سبيل «الله» ، إعلاء لكلمة الحق ، ودفاعا عن دين «الله» الواحد الأحد .

فقد اشترك مصعب فى غزوة بدر ، وكان معه - رضى الله عنه - لواء المهاجرين .. وفى يوم أحد : حمل مصعب بن عمير اللواء ، فلما جال المسلمون ثبت مصعب ، فأقبل ابن قميئة وهو فارس ، فضرب يده اليمنى فقطعها ، ومصعب يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١)

وأخذ اللواء بيده اليسرى ، وحنا عليه ، فضرب يده اليسرى فقطعها ، فحنا على اللواء ، وضمه بعضديه إلى صدره .. وهو يقرأ :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾

ثم حمل عليه الثالثة بالرمح ، فأنفذه ، واندق الرمح ، ووقع مصعب وسقط اللواء ، وابتدره رجلان من بنى عبد الدار .

فأخذ أبو الروم بن عمير ، فلم يزل معه فى يده ، حتى دخل به المدينة .

وفيما رواه ابن سعد - بسنده - عن عبد الله بن الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال :

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

أعطى رسول الله (ﷺ) - يوم أحد - مصعب بن عمير اللواء ، فقتل مصعب ، فأخذه ملك فى صورة مصعب ، فجعل رسول الله (ﷺ) يقول له فى آخر النهار :

تقدَّم يا مصعب ، فالتفت إليه الملك فقال :

لست بمصعب ، فعرف رسول الله ﷺ أنه ملك أيد به .

قال ابن إسحاق : وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله (ﷺ) حتى قتل ، وكان الذى قتله ابن قميئة الليثى ، وهو يظن أنه رسول الله (ﷺ) ، فرجع إلى قريش ، فقال : قتلت محمدا ، فلما قتل مصعب بن عمير ، أعطى رسول الله (ﷺ) اللواء على بن أبى طالب ، وقاتل على بن أبى طالب ورجال من المسلمين (رضى الله عنهم أجمعين) .

و لم يترك مصعب إلا ثوبا ، إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطوا رجليه ، خرج رأسه ، فقال رسول الله (ﷺ) :
« اجعلوا على رجليه شيئا من الإذخر »

وقد صلى عليه رسول الله (ﷺ) ، وقرأ هذه الآية :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (١)

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

ثم قال : إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة ، وكان استشهاد مصعب على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة وهو ابن أربعين سنة أو يزيد شيئا فـ (رضى الله عنه) وعن سائر صحابة رسول الله (ﷺ) .

نفعنا الله بسيرة سيدنا رسول الله (ﷺ) ، ووفقنا للعمل بالكتاب والسنة .

رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

غَزْوَةُ حَمْرَاءِ الأَسَدِ

كانت غزوة «أحد» يوم السبت الخامس عشر من شهر شوال ، وفى اليوم التالى وهو يوم الأحد نادى منادى الرسول (ﷺ) فى الناس قائلا : **«لا يخرجن معنا إلا من حَضَرَ معنا القتال»** واستأذن جابر ابن عبد الله فى الخروج ، لأنه كان قد تخلف عن الخروج لغزوة أحد بعذر ، فأذن له الرسول (ﷺ) ، ولم يأذن لابن أُبى بالخروج معه حين طلب ذلك .. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وحمل اللواء على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، وساروا حتى وصلوا «حمراء الأسد» وهو موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة وذلك يوم الإثنين ، ومرّ برسول الله (ﷺ) معبد بن أبى معبد الخزاعى وهو يومئذ مشرك وكانت خزاعة موضع مودة للرسول (ﷺ) فقال معبد : **يا محمد أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم** . ومر معبد بأبى سفيان وأصحابه فقال له : **ما وراءك يا معبد** قال : **قد خرج محمد فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله يتحرقون عليكم تحرقا** واجتمع إليهم من كان تخلف عنهم ونصحه بعدم العوده ، فخاف أبو سفيان وأسرع إلى مكة .. ولكن لما مر بأبى سفيان ركب بنى عبد القيس وكانوا متجهين إلى المدينة عرض عليهم أن يبلغوا النبى (ﷺ) وأصحابه أن قريشا قد أجمعت السير إليهم ، ووعدهم أن يكافئهم على ذلك بأن يحمل إبلهم كثيرا من الزبيب إذا وافوا عكاظ فى الموسم ، فمرّ الركب برسول الله (ﷺ) وهو بحمراء الأسد فأخبروه بقول أبى سفيان ، فكان

جوابه : «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» وأقام المسلمون بها ثلاثة أيام ثم عادوا إلى المدينة وقد استردوا هيبتهم ، وفى هذا نزل قول الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾[1]

(١) سورة آل عمران : (١٧٢ ــ ١٧٤) .

يـــوم الـرجيـــع

قال الإمام البخارى رحمه الله : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى عمرو بن أبى سفيان بن أسيد بن جارية الثقفى وهو حليف لبنى زهرة وكان من أصحاب أبى هريرة، أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله (ﷺ) عشرة رهط سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى جد عاصم بن عمر بن الخطاب ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة - وهو بين عسفان ومكة - ذكروا لحى من هذيل ، يقال لهم : بنوا لحيان ، فنفروا لهم قريبا من مائتى رجل كلهم رام . فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد[1] وأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : انزلوا ، وأعطونا بأيديكم ، ولكم العهد والميثاق ، ولا نقتل منكم أحدا فقال عاصم بن ثابت أمير السرية : **أما أنا فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر ، اللهمَّ أخْبِرْ عنَّا نبيَّكَ** ، فرموهم بالنبل ، فقتلوا عاصما فى سبعة ، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق ، منهم خبيب الأنصارى وابن الدثنة ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم ، أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم ،

---

(١) **فدفد** : موضع فيه غلظ وارتفاع .

إن لى فى هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - وعالجوه على أن يصحبهم ، فأبى فقتلوه ، فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا ، فأخبرنى عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد به ، فأعارته ، فأخذ ابنا لى وأنا غافلة حتى أتاه ، قالت : فوجدته يجلسه على فخذه والموسى بيده ، ففزعت فزعة عرفها خبيب فى وجهى ، فقال : تخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك ، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب ، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده ، وإنه لموثق فى الحديد ، وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول : إنه لرزق من الله رزقه خبيبا ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحل ، قال لهم خبيب : ذرونى أركع ركعتين ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطولتهما، اللهم أحصهم عددا

وَلَستُ أُبَالى حِينَ أُقتَلُ مُسلِمًا عَلَى أَىِّ شِقٍّ كَانَ لله مَصرَعِى
وَذَلِكَ فِى ذَاتِ الإِلٰهِ وَإن يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوصَالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ

فقتله ابن الحارث ، فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرىء مسلم قتل صبرا ، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبى (ﷺ) أصحابه خبرهم وما أصيبوا وبعث ناس من كفار قريش

إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء فيه يعرف ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر[٢] ، فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا» .

تلك هي سرية الرجيع - والرجيع : اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان على ثمانية أميال من عسفان ووقفةً مع هذه السرية :

ففي السنة الرابعة وفي شهر صفر ، قدم على رسول الله (ﷺ) رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يارسول الله ، إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك ، يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام فبعث رسول الله (ﷺ) معهم عشرة ، ليقوموا بمهمة الدعوة والتبليغ من جهة ، وليكونوا عيونا على المشركين من جهة أخرى .

فقد كانت هذه السرية تمثل حلقة هامة في سلسلة الدعوة والجهاد في سبيل الله أمر عليهم رسول الله (ﷺ) عاصم بن ثابت ، وما إن وصلوا الرجيع إلا وغدر القوم بهم ، واستصرخوا عليهم آخرين ، فلجأوا إلى ربوة عالية ، يمتنعون بها منهم ، وأخذوا سيوفهم ليقاتلوهم ، فلجأ المشركون إلى الخدعة فقالوا : إنا والله ما نريد قتلكم،

---

(٢) الدبر : ذكور النحل .

ولكننا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم فأما عاصم وآخرون فقالوا والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا ، وظلوا يجاهدون وأبوا أن يسلموا حتى استشهدوا فى سبيل الله .. وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق فنزلوا إليهم فلما تمكنوا منهم أوثقوهم ، فانتزع عبد الله يده وأخذ سيفه وحاول أن يقاتلهم فرجموه بالحجارة حتى استشهد ، وأما خبيب وزيد فباعوهما لبعض أهل مكة الموتورين منهم : فاشترى بنو الحارث خبيبا ليقتلوه بأبيهم الذى قتله يوم بدر ، واشترى صفوان زيدا ليقتله بأبيه . وحبسوهما حتى انتهت الأشهر الحرم فأخرجوهما إلى التنعيم فقتلوهما .. ولقد كان لهذين الفدائيين المسلمين نبأ عظيم ، وكرامة عند الله ، ومنزلة عالية ، أما خبيب : فقد ضرب أروع الأمثلة فى سمو الخلق الإسلامى الرفيع الذى يأبى عليه أن ينال من غلام صغير وأن يؤاخذه بجريرة غيره ، فقد فزعت أم هذا الغلام ، وقد رأت فى يده الموسى الذى استعاره ليستحد به ورأت الغلام بين يديه فأدرك شعورها ، فقال لها : أتخشين أن أقتله ؟ ماكنت لأفعل ذلك إن شاء الله ، وكانت الجارية تحدث بعد أن أسلمت فتقول : ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب ، ولقد رأيته يأكل من قطف من عنب وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق فى الحديد ، وما كان إلا رزقا رزقه الله .. وكان أول من سن الركعتين عند القتل .. لقد وقف بعد صلاة الركعتين ضارعا إلى ربه هاتفا من

أعماقه قائلا : «**اللَّهمَّ إنَّا بَلَّغنا رَسَالَةَ رَسُولِكَ ، فَبلِّغهُ الغداة مَا يَفعَلُ بِنَا ، اللَّهمَّ أَحصِهِم عددًا ، واقتلهم بَددًا وَلاَ تُبق منهم أَحدًا**» .

وأما زيد بن الدثنة ، فقد ضرب أروع الأمثلة فى الفدائية وفى حب رسول الله (ﷺ) ، فعندما هموا بقتله قال أبو سفيان بن حرب : أنشدك الله يازيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان ما رأيت أحدًا من الناس يحب أحدا كحبِّ أصحاب محمد محمدا ..

وأما عاصم بن ثابت : فقد أرادت قريش أن تنال من جسده ، فمنعه الله وبعث على جسده مثل الظلة من الدبر وهى ذكور النحل ، فقالوا : دعوه حتى يمسى فيذهب عنه ، فغيبه الله فى الوادى وما عرفوا له أثرا ، وعن قتادة قال : «كان عاصم بن ثابت أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا ، فكان عمر يقول لما بلغه خبره : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه فى حياته» .. إنها دروس الإيمان واليقين ، والتضحية والفداء وأمثلة البطولة والصبر ممن عاشوا فى رياض النبوة وتربوا على مأدبة القرآن ، فكانوا نماذج عالية للفدائية والبطولة على مر أدوار الحياة .

يَوْمُ بِئْرِ مَعُونَة «سَرِيَّةُ القُرَّاءِ»

قدم عامر بن مالك إلى المدينة ، فعرض عليه الرسول (ﷺ) الإسلام ، فأبى ، وقال : «**يا محمد ، لو أنك بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لهذا الأمر**»

فقال له الرسول (ﷺ) : «**إنى أخشى عليهم أهل نجد**» ، فقال عامر بن مالك : «**فإنى لهم مجير**» ، فأرسل لهم الرسول (ﷺ) أربعين[1] رجلا من أصحابه تحت قيادة المنذر بن عمرو وكانوا من خيرة صحابة رسول الله (ﷺ) فيهم الحارث بن الصمة ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، فساروا حتى نزلوا بالقرب من بئر معونة ، وأرسلوا واحدا منهم بكتاب رسول الله (ﷺ) إلى عامر بن الطفيل فأخذ الكتاب وقتل حامله ، ثم جاء على الباقين فقتلهم جميعا .

وكان فى أثرهم - من قِبَل النبى (ﷺ) - عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن محمد بن عقبة الأنصارى ، فرأوا الطير تحوم حول الأرض ، فقالا : **إن لهذه الطيور لشأنا** ، ثم أقبلا حتى وجدا القوم كلهم قتلى . فقال عمرو بن أمية أرى أن نلحق برسول الله (ﷺ) فنخبره ، وقال صاحبه : **أرى ألا نبرح حتى نقاتل** ، فقاتلا حتى قتل المنذر بن محمد بن عقبة الأنصارى وأخذ عمرو أسيرا ثم أطلقه

---

(١) قيل عددهم سبعون وكانوا من حفظة القرآن الكريم .

عامر ابن الطفيل ليد كانت له عنده ، فلما خرج عمرو وجد رجلين من بنى عامر بن الطفيل فقتلهما ثأرا لأصحاب رسول الله (ﷺ) ، فلما علم النبى (ﷺ) قال له : «**لقد قتلت رجلين قد عقدت لهما حلفا وجوارا فلهما علينا الدية**» ثم قال عليه الصلاة والسلام : «**هذا رأى عامر بن مالك وإنى كنت لرأيه كارها**» فبلغ ذلك عامرا فشق عليه أن يخفر فى جواره ، فأرسل ابنه ربيعة بن عامر إلى ابن الطفيل فحمل عليه وضربه بالرمح فأصاب فخذه ، ووقع عن فرسه فتركه .

ولقد حزن الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) على هؤلاء الصحابة ، ومكث شهرا يدعو فى صلاة الصبح على رِعْل وذَكْوان وعُصَيّة الذين غدروا بالقراء ، وهم أحياء من بنى سُليم .

غَزْوَةُ بَنِى النَّضِيرِ

ذهب رسول الله (ﷺ) إلى بنى النضير ليستعين بهم فى دِية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر بن الطفيل عقد وحلف ، وأجابوا رسول الله (ﷺ) على طلبه بقولهم : **نعم نحن نعينك على ذلك** ، ووجدوا فيما بينهم أن الفرصة قد سنحت لقتل الرسول (ﷺ) ، فهمّ رجُل منهم بالذهاب إلى أعلا الدار ليُلْقِى حجرًا على رسول الله (ﷺ) ، فأعلمه الله بمكرهم وتدبيرهم ، فانصرف إلى المدينة وأعلم أصحابه بذلك ، وأن يهود بنى النضير قد نقضوا ما بينهم وبينه من عهد فتجهز لغزوة بنى النضير واتجه رسول الله (ﷺ) إلى بنى النضير ، فدخل القوم حصونهم وتحصنوا بها فحاصرهم ست ليال أو إحدى وعشرين ليلة ثم قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فطلبوا أن يكف عنهم وأنهم سيتركون بيوتهم ، فيأخذ كل رجل منهم من ماله وما حمل بعيره إلا السلاح وينصرفون ، فوافق النبى (ﷺ) ، وخرج منهم من خرج إلى خيبر والشام وتركوا باقى أموالهم إلى النبى (ﷺ) فقسمها بين المهاجرين والأنصار .. وقد تحدثت آيات سورة الحشر عن شأنهم ..

وعندما حاصرهم النبى (ﷺ) وأمر بقَطْع نخيلهم وإتلافها نادوه : **يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟!** فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾[1]

(١) سورة الحشر : (٥) .

غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ

كان السبب فى هذه الغزوة أن رسول الله (ﷺ) سمع بتجمع بنى محارب وبنى ثعلبة لحربه ، فرأى أن يغزوهم واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى رضى الله عنه ، وقيل : عثمان بن عفان رضى الله عنه . ونزل نخلا أو نخلة من منازل بنى ثعلبة بنجد ، وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع ؛ لأن أقدامهم لما تقرحت لفوها بالرقاع ؛ وقيل : لأنهم رقعوا فيها الرايات ، وقيل : «ذات الرقاع» هى شجرة فى هذا المكان تسمى بذلك ، وقيل : إن الجبل الذى نزلوا عليه كانت أرضه ذات الوان بين إحمرار وإصفرار وسواد ، فسموا الغزوة ذات الرقاع لذلك . وواجه الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) جمعين من غطفان ولم يقم بينهم قتال ، وصلى رسول الله (ﷺ) صلاة الخوف بالمسلمين .

وكانت هذه الغزوة فى السنة الرابعة ، وكان الرسول (ﷺ) قد أقام بعد غزوة بنى النضير شهر ربيع الآخر وبعض جمادى ، ثم غزا نجدًا .

وعن جابر بن عبد الله **أن رجلا من بنى محارب يقال له غَوْرث قال لقومه من غطفان ومحارب : ألا أقتل لكم محمدًا ؟ قالوا : بلى وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به ، قال : فأقبل إلى رسول الله (ﷺ) وهو جالس ، وسيف رسول الله (ﷺ) فى حجره فقال : يا محمد ، انظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم وكان محلى بفضة فأخذه فاستلّه**

ثم جعل يهزه ويهمّ فيكبته الله ، ثم قال : يا محمد ، أما تخافنى ؟ قال : لا ، وما أخاف منك ؟ قال : أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال : لا ، يمنعنى الله منك ، ثم عمد إلى سيف رسول الله (ﷺ) فردّه عليه ، قال فأنزل الله

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[١] .

---

(١) سورة المائدة (١١) .

غزوة دُومَةِ الْجَنْدَلِ

«دُومَةُ الجندل» : هى واحة على الحدود تقع ما بين الحجاز والشام .

وسبب هذه الغزوة : أن رسول الله (ﷺ) علم أن بهذا المكان مجموعة كبيرة من الناس يظلمون من مرّ بهم ، ويريدون الاقتراب من المدينة ، فدعا أصحابه إلى الخروج ، فخرجوا فى شهر ربيع الأول سنة خمس فى ألف ، واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفارى وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار ، ومعهم هادٍ اسمه «مذكور» فلما اقتربوا من المكان هجموا على الماشية والرعاء وأصابوا من أصابوا ، وتفرق من كان هناك ونزل الرسول (ﷺ) بساحتهم فلم يبق أحد هناك وأقام بعض أيام وتشر السرايا والعيون وأصاب منهم محمد بن سلمة وقد عرض عليه الإسلام فأسلم وعاد رسول الله (ﷺ) إلى المدينة بعد أن مكث شهرا .

وكانت هذه الغزوة مقاومة ومواجهة للظالمين الذين يؤذون المارّين بهذا المكان ، كما كان فيها إعلان عن قوة الإسلام وقدرته على مواجهة من يعادى المسلمين ، ونشر دعوة الإسلام بين سكان البوادى والأطراف وهى أول غزوة بعيدة عن المدينة من جهة الشام ، ولذا كانت هذه الغزوة تدريبا للجيش الإسلامى على خوض المعارك فى الأماكن النائية ، وهى بمثابة البداية للفتوحات المقبلة وعند عودة الرسول (ﷺ) صالح عيينه بن حصن الفزارى وكانوا يلقبونه «الأحمق المطاع» حيث كانوا يتبعونه ولا يسأله أحد عن سبب غضبه ، وأقطعه الرسول (ﷺ) أرضا يرعى فيها دوابه لأن أرضه كانت أجدبت .

غَزْوَةُ بَنِى المُصْطَلِق أو المُرَيسِيع

المصْطَلِق : لقب جُزيمة بن كعب وهم بطن من خزاعة ، والمريسيع : ماء بنى خزاعة .

عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) أن النبى (ﷺ) أغار على بنى المصطلق وهم غارّون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذ جُوَيرية (رضى الله عنها) .

وجاءت هذه الإغارة نتيجة طبيعية لهؤلاء القوم الذين ساعدوا قريشا على حرب المسلمين فى غزوة أُحُدْ ، فقد بلغ الرسول (ﷺ) أنهم جمعوا جموعهم لحربه فى شعبان من السنة الخامسة .. وخرج رسول الله (ﷺ) فى سبعمائة من أصحابه حتى دهموهم عند «المريسيع» وهم فى غفلة فقتلوا الطائفة المقاتلة منهم وأسروا الباقين ولم يستشهد من المسلمين إلا هشام بن صبابة الذى قتل خطأً من أحد الأنصار ظنا أنه من الأعداء وكانت هذه الإغارة جزاء وفاقا لهؤلاء الذين بيتوا الشر للمسلمين ، قال تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنفال : (٥٨) .

وأما بالنسبة لموقف الرسول (ﷺ) من الأسرى فقد كان تصرفا حكيما تبين بعد النظر فيه ، وماله من أسمى النتائج التى ترتبت عليه ، وذلك أن الرسول (ﷺ) كما قالت السيدة عائشة «رضى الله عنها» ، لما قسّم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جُويرية بنت الحرث فى السهم لثابت بين قيس الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها ، فأتت رسول الله (ﷺ) تستعينه فى كتابها ؛ فقالت : **يا رسول الله أنا جويرية بنت الحرث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت ابن قبس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسى فجئتك استعينك على كتابتى** ، قال : «**فهل لك من خير من ذلك ؟**» قالت : «**وما هو يا رسول الله ؟**» قال : «**أقضى عنك كتابتك وأتزوجك**» قالت : **نعم يارسول الله** ، قال : «**قد فعلت**» ، عندئذ قال المسلمون : **أصهار رسول الله** (ﷺ) **يُسترقون ؟!** فأطلقوا مَنْ بأيديهم ، قالت عائشة : **لقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها** ، وترتب على هذا أن أسلم بنو المصطلق جميعا وأصبحوا عونا للمسلمين بعد أن كانوا أعداء .

وفى رواية أخرى : أن أباها جاء فى فدائها بإبل وفى الطريق غَيَّب بعيرين ضنّا بهما ، فلما قدم قال له الرسول (ﷺ) : «**أين البعيران اللذان غيبتهما فى شعب كذا؟!** ، فقال الرجل : **والله ما اطلع على هذا إلا الله** ، فأسلم وأسلم من معه ، وأحضر البعيرين وسلمت إليه ابنته فأسلمت وخطبها الرسول (ﷺ) من أبيها فزوَّجه إياها .

غزوةُ الخَنْدَقِ «الأحْزَاب»

وقعت غزوة الخندق فى شهر شوال فى السنة الخامسة من الهجرة .

وسببها : أن قريشا كانت تودُّ أن تنال من رسول الله (ﷺ) والمسلمين بعد ما أصابها من خزى ونكسة لأنها نكصت عن الخروج فى بدر الأخرى ، كما كان الأعراب الذين نال منهم النبى (ﷺ) وأصحابه يرغبون فى الانتقام وكان يهود بنى قينقاع وبنى النضير الذين أجلاهم النبى (ﷺ) عن المدينة فى غيظ فسعوا للقضاء على المسلمين الذين أجلوهم ، ونسوا عفو الرسول (ﷺ) عنهم ، فتجمعت هذه القوى لمحاربة المسلمين ، فكانت غزوة الأحزاب .. لقد خرج وفد من اليهود على رأسهم حُيَى بن أخطب النضرى وسلّام بن أبى الحُقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ونفر من وائل حتى قدموا على قريش فدعوهم إلى حرب النبى (ﷺ) ، فرحبت قريش وقائدهم أبو سفيان ، وخرجت غطفان وقائدهم عُيينة بن حصن الفزارى .

ولما علم الرسول (ﷺ) بذلك لم يأخذ قرارا قبل أن يستشير أصحابه كما هى عادته فى مثل هذه الأمور ، فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة من الجهة التى يتوقع أن يأتى العدو منها .. فأخذ رسول الله (ﷺ) بمشورة سلمان رضى الله عنه وأخذ يطبقها بالفعل ويعمل مع المسلمين بنفسه تشجيعا لهم وتحصيلا للثواب وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف ، وعدد الذين تجمعوا من قريش والأحزاب والقبائل عشرة آلاف .

وبينما كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق إذ بصخرة اشتدت عليهم ، فجاءوا إلى رسول الله (ﷺ) فأخذ المعول وقال : «باسم الله وضرب ضربة فكسر جزءا من الصخرة فكبر صلوات الله وسلامه عليه وقال أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا» .. ثم قال : «**باسم الله**» وضرب ضربة ثانية فكسر جزءا آخر، فكبر صلوات الله عليه وسلامه وقال : «**أُعطِيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا**» ثم قال : «**باسم الله وضرب الثالثة ثم كبر**» وقال : «**أعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن**» ثم قال صلوات الله وسلامه عليه لسلمان الفارسى : «**هذه فتوح يفتحها الله بعدى يا سلمان**» وكان المسلمون يرتجزون وهم يحفرون الخندق قائلين :

نحن الذين بايعوا محمد على الاسلام ما بقينا أبدا

فيجيبهم قائلا : **اللهم انه لا خير الا خير الآخرة**

فبارك فى الأنصار والمهاجرة

ومن المعجزات التى أجراها الله تعالى على يد رسول الله (ﷺ) فى هذه الغزوة ماروى عن جابر رضى الله عنه قال : **إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية وشديدة فجاءوا النبى** (ﷺ) ، **فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا ، فأخذ النبى** (ﷺ) **المعول فضرب ، فعاد كثيبا أهيل** (أو أهيم) **فقلت : يارسول الله ، ائذن لى إلى البيت ، فقلت لأمرأتى : رأيت بالنبى** (ﷺ) **شيئا ما كان**

لى فى ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ قالت : عندى شعير وعَناق [هى الأنثى من المعز] فذبحوا العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبى (ﷺ) والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافى [هى الحجارة التى يوضع القدر عليها] قد كادت أن تنضج ، فقلت : طعيم لى ، فقم أنت يارسول الله ورجل أو رجلان . قال : كم هو ؟ فذكرت له قال : كثير طيب ، فقل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى ، ثم نادى المهاجرين والأنصار فقال لهم : قوموا وفى طريق أخرى فصاح النبى (ﷺ) : يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سورًا [الصنيع العام من الطعام] فحى هلا بكم ، فلما دخل جابر على امرأته قال : ويحك جاء النبى بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ، قالت : هل سألك : كم طعامك ؟ قال : نعم ، قالت : الله ورسوله أعلم ، ثم جاء النبى (ﷺ) فقال : ادخلوا ولا تضاغطوا ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمّر البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا ، وبقى بقية قال : كلى هذا واهدى ، فإن الناس أصابتهم مجاعة وفى رواية أخرى : فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى وإن عجيننا ليخبز كما هو[١] .

وقد بعث الرسول (ﷺ) إلى عيينة بن حصن قائد غطفان يقول له : «إن لك ثلث تمر المدينة على أن ترجع بمن معك من غطفان» ،

---

(١) رواه البخارى .

فرضى عيينة بذلك ، وعلم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فأتيا إلى رسول الله (ﷺ) ، وقالا له : **يارسول الله، أهذا الذى بعثت به إلى عيينة بن حصن أمر أمرك به ربك أم هو صنيعة تصنعها لنا ؟!** فقال النبى (ﷺ) : «**لا بل هو صنيعة أصنعها لكم لما رأيت من شدة الأمر عليكم**» ، فقال سعد بن معاذ : **يارسول الله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وكان هؤلاء القوم لا يطمعون أن يأكلوا تمرة واحدة من تمر المدينة إلا عن قرى أو بيع ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا اليه وأعزنا بك وبه سبحانه نعطيهم اموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم** ، **فقال رسول الله** (ﷺ) : «**ياسعد أنت وذاك**» وكان رسول الله (ﷺ) لا يفتر عن الدعاء والتضرع والاستغاثة وكان من دعائه :

«**اللهمَّ مُنزلَ الكتابِ ، سَريعَ الحِسَابِ ، اهزِم الأحزابَ ، اللهمَّ اهْزِمْهُمْ وزَلْزِلْهُمْ**»[1] .

وقد اقتحمت خيل للمشركين الخندق من مكان ضيق ، فأبصرهم على بن أبى طالب وجماعة من المسلمين وأحاطوا بهم فولوا منهزمين .. وشاء رب العالمين ، أن يفرق أعداء الدين ويبدد شملهم فدبّ الخلاف بينهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، وأرسل عليهم الريح ليلا فأكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم ، وهدمت منازلهم ، وأرسل

(١) رواه البخارى .

الملائكة فمزقوهم شر ممزق ، وما أحد منهم يبصر أين هو؟! وولّوا منهزمين قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[٢] .

---

(٢) سورة الأحزاب : (٩ — ١١) .

غزوة بِنِى قُرَيْظَة

لما رجع رسول الله (ﷺ) من غزوة الخندق ، ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل عليه السلام فقال : «**قد وَضَعْتَ السلاحَ ؟ والله ما وضَعْنَاه ، فاخْرُجْ إليهم**» قال : «**فإلَى أين ؟**» قال : «**هَهُنا** ، وأشار إلى بنى قريظة ، **فخرج النبى (ﷺ) إليهم**[1] .

ونادى رسول الله (ﷺ) فى المسلمين : «**ألا لا يُصَلِّينَ أحدٌ العصرَ إلا فى بَنِى قُرَيظة**» فسار الناس ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ؟ فقال بعضهم : **لا نصلى حتى نأتيها** ، وقال بعضهم : **بل نصلى** ، ولم يرد منا ذلك ، فذكروا ذلك للنبى (ﷺ) فلم يُعَنِّف واحدا منهم[2] .

وأرسل الرسول (ﷺ) على بن أبى طالب إلى بنى قُريظة ومعه رايته فاتبعها الناس ، ولحق رسول الله (ﷺ) به ، وتلاحق المسلمون وحاصر رسول الله (ﷺ) بنى قُريظة - وهم متحصِّنون فى حصونهم - خمسا وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب فلما رأوا أن رسول الله (ﷺ) غير منصرف عنهم قال كعب بن أسد لليهود : **يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم** ، قالوا : **فما هى ؟** قال : **نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم**

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى .

أنه لنبى مرسل وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا ، قال : فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، قالوا : فما ذنب المساكين ؟ قال : فإن أبيتم هذه أيضا فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة ، فأبوا ذلك أيضا . فنزلوا على حكم رسول الله (ﷺ) وكان بين بنى قريظة والأوس حلف ، فجعل رسول الله (ﷺ) الحكم لواحد من رؤساء الأوس وهو سعد بن معاذ ، وكان قد أصيب بسهم فى غزوة الخندق فكان يداوى فى خيمة هناك ، فلما دنا من مكان هناك أعدوه مسجدا ، قال رسول الله (ﷺ) للأنصار : «قوموا إلى سَيِّدكم» أو خيركم ، ثم قال إن هؤلاء نزلوا على حكمك قال : تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم ، فقال له النبى (ﷺ) : «قضيتَ بحُكْمِ الله تعالى»[1] . وفى رواية : «لقد حكمْتَ فيهم حُكْمَ الله من فوقِ سبعِ سماوات» ثم قتلوا وهم بين السبعمائة والثمانمائة .

فلما انقضى أمرهم انفجر جُرح سعد بن معاذ من السهم الذى أصابه يوم الخندق فمات شهيدًا (رضى الله عنه) ، وجاء جبريل (عليه السلام) إلى النبى (ﷺ) وقال له : «من الذى مات من أصحابك

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ففتحت له أبواب السماء واهتز لموته العرش ؟» فذهب رسول الله (ﷺ) إلى مكان سعد فوجده قد مات ، وكان سعد بدينا ، فلما حمل فى نعشه قال حاملوه : **ما وجدنا أخف منه حملا** ، فقال النبى (ﷺ) : **«إن له حملةً غيركم وإن الملائكةَ قد استبشرت بِرُوحِ سعدٍ واهتزَّ له العرشُ»** وقال (ﷺ) : **«اهتز العرشُ لموتِ سعدِ بنِ مُعاذ»**[٢] . رضوان الله عليه ، وسلام عليه فى مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر .

---

(٢) رواه البخارى ومسلم .

صلح الحديبية

قال الإمام البخارى : حدثنى عبد الله بن محمد : حدثنا عبد الرزاق : أخبرنا معمر قال : أخبرنى الزهرى قال : أخبرنى عروة ابن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان ، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : خرج رسول الله (ﷺ) زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبى (ﷺ) :

إن خالد بن الوليد بالغميم[١] فى خيل لقريش طليعة[٢]

فخذوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة[٣] الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش ، وسار النبى (ﷺ) حتى إذا كان بالثنية[٤] التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته . فقال الناس حل حل[٥] ، فألحت[٦] فقالوا ، خلأت[٧] القصواء ،

---

(١) **الغميم** : هو قريب من مكان بين رابغ والجحفة وهو غير كراع الغميم الذى بين مكة والمدينة وسياق الحديث يدل على أن الغميم قريب من الحديبية .

(٢) **طليعة** : مقدمة الجيش . (٣) **القترة** : الغبار الأسود .

(٤) **ثنية المرار** : طريق فى الجبل تشرف على الحديبية .

(٥) **حل حل** : كلمة تقال للناقة إذا تركت السير .

(٦) **ألحت** : تمادت فى عدم القيام .

(٧) **خلأت الخلاء كالحران للخيل والقصواء** : اسم ناقة الرسول (ﷺ) .

فقال النبى ﷺ : **مَا خَلأَتِ القَصْواءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ ، وَلَكِن حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ** ، ثم قال :

« **والذى نفسى بيده لاِ يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها** » ثم زجرها ، فوثبت : قال : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[٨] قليل الماء يتبرضه[٩] الناس تبرضا .. فلم يلبثه[١٠] الناس حتى نزحوه .

وشكى إلى رسول الله (ﷺ) العطش ، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه .

فوالله مازال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه .

فبينما هم كذلك ، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة .

وكانوا عيبة[١١] نصح رسول الله (ﷺ) من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى ، نزلوا أعداد مياه

---

(٨) **ثمد** : حفرة صغيرة بها ماء قليل .

(٩) **يتبرضه** : يأخذه قليلا كالأخذ بالكفين .

(١٠) لم يتركوه .

(١١) **العيبة** : ما توضع فيه الثياب لحفظها أى أنهم موضع النصح له والأمانة على سره ، وتهامة هى مكة وما حولها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح .

الحديبية ، ومعهم العوذ المطافيل[١٢] وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، فقال رسول الله (ﷺ) : « **إنا لم نجىء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا[١٣] ، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى[١٤] ولينفذن الله أمره** » .

فقال بديل : سأبلغهم ما تقول . قال : فانطلق ، حتى أتى قريشا ، قال : إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا ، فإن شئتم نعرضه عليكم فعلنا ..

فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشىء .

وقال ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته يقول ، قال : سمعته يقول كذا وكذا . فحدثهم بما قال النبى (ﷺ) فقام عروة بن مسعود فقال : أى قوم ، ألستم بالولد ؟ قالوا : بلى ، قال : وألست بالوالد ؟ قالوا : بلى .

قال : فهل تتهموننى ؟ قالوا : لا . قال : ألستم تعلمون أنى

---

(١٢) **العوذ** : جمع عائذ وهى الناقة ذات اللبن والمطافيل الأمهات معها أطفالها .

(١٣) **جموا** : أى استراحوا ، وقووا . (١٤) **السالفة** : صفحة العنق .

استنفرت أهل عكاظ . فلما بلحوا[١٥] عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، أقبلوها ودعوني آتِهِ ، قالوا : ائته ، فأتاه ، فجعل يكلم النبي (ﷺ) ، فقال النبي (ﷺ) نحوا من قوله لبديل ، فقال عروة عند ذلك : أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوها ، وإني لأرى أشوابا[١٦] من الناس خليقا أن يفرّوا ويدعوك ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : امصص بظر اللات[١٧] أنحن نفر عنه وندعه ؟

فقال : من ذا ؟ ، قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك ، قال : وجعل يكلم النبي (ﷺ) فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي (ﷺ) ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي (ﷺ) ضرب بيده بنعل السيف وقال له : أخّر يدك عن لحية رسول الله (ﷺ) ، فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟

---

(١٥) بلحوا : امتنعوا .

(١٦) الأشواب : الأخلاط من أنواع شتى ، والأوباش الأخلاط من السفلة .

(١٧) البظر ما يبقى بعد من ختان المرأة واللات اسم صنم وكانت عادة العرب الشتم بذلك ولكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة بإقامة الصنم وهو معبوده مقام أمه .

قالوا : المغيرة بن شعبة فقال : أى غدر[١٨] : ألست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم .

فقال النبى (ﷺ) : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء .

ثم إن عروة جعل يرمق[١٩] أصحاب النبى (ﷺ) بعينيه ومما قاله قال : إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه . وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم والله قد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد (ﷺ) محمدا :

إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له .

وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آتيه . فقال ائته .

---

(١٨) غدر : معدول عن مبالغة فى وصفه بالغدر .

(١٩) يرمق : يلحظ .

فلما أشرف على النبى (ﷺ) وأصحابه قال رسول الله (ﷺ) : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له ، فبعثت له ، واستقبله الناس يلبون . فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ، ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت . فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت .

فقام رجل منهم فقال له مكرز بن حفص فقال : دعونى آتيه فقالوا : ائته ، فلما أشرف عليهم قال النبى (ﷺ) : هذا مكرز وهو رجل فاجر ، فجعل يكلم النبى (ﷺ) فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو . قال معمر : فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل ابن عمرو قال النبى (ﷺ) :

قد سهل لكم من أمركم . قال معمر : قال الزهرى فى حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبى (ﷺ) الكاتب ، فقال النبى (ﷺ) :

اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدرى ماهى ولكن أكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبى (ﷺ) : **اكتب باسمك اللهم** ، ثم قال : **هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله** ، فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ولكن اكتب : محمد بن عبد الله .

فقال النبى (ﷺ) : **والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى ، اكتب محمد بن عبد الله** ، قال الزهرى : وذلك لقوله لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، فقال النبى (ﷺ) : **على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به** . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة(٢٠) . ولكن ذلك من العام المقبل فكتب فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، قال المسلمون : سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يامحمد أول من أقاضيك عليه أن تردَّه إلىَّ فقال النبى (ﷺ) :

إنا لم نقض الكتاب بعد . قال : فوالله إذًا لم أصالحك على شىء أبدا .

فقال النبى (ﷺ) : **فأجزه لى** ، قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : **بلى فافعل** ، قال : ما أنا بفاعل .

قال مكرز : بل قد أجزناه لك .

قال أبو جندل : أى معشر المسلمين أُردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا ترون ما قد لقيت .

---

(٢٠) **ضغطه** : قهرا .

وكان قد عُذِّب عذابا شديدا فى الله ، قال : فقال عمر بن الخطاب : فأتيت نبى الله (ﷺ) ، فقلت : ألست نبى الله حقا ؟ قال : **بَلَى** ، قلت : ألسنا على حق وعدونا على الباطل ؟ قال : **بَلَى** . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا ؟ قال : **إنِّى رَسُولُ الله وَلَستُ أَعصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِى** .

قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : **بَلَى** ، **فأخبَرتُكَ أنَّا نَأتِيهِ العَام** ؟ قال : قلت : لا قال : **فَإنَّكَ آتِيهِ ومطوف به** ، قال : فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال : بلى قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا ؟

قال : أيها الرجل ، إنه لرسول الله (ﷺ) وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه(٢١) فوالله إنه على حق . قلت أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتية ومطوف به .

قال الزهرى قال عمر : فعملت لذلك أعمالا(٢٢) . قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله (ﷺ) لأصحابه : قوموا

---

(٢١) **الغرز** : هو للإبل بمنزلة الركب للغرس والمراد : التمسك بأمره وترك المخالفة .

(٢٢) **أى أعمالا صالحة وفى رواية أخرى** : مازلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا .

فانحروا ثم احلقوا قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت أم سلمة : يانبى الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا . وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما .

ثم جاءه نسوة مؤمنات ، فأنزل الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾(٢٣)

حتى بلغ «بعصم الكوافر» فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع النبى (ﷺ) إلى المدينة ، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا : العهد الذى جعلت لنا ؟ فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به. حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا يافلان جيدا فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد .

---

(٢٣) الممتحنة : ١٠ .

لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه فضربه حتى برد[٢٤] وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله (ﷺ) حين رآه : لقد رأى هذا ذعرا ، فلما انتهى إلى النبى (ﷺ) قال : قتل والله صاحبى وإنى لمقتول فجاء أبو بصير فقال : يا نبى الله قد - والله - أوفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم ، ثم أنجانى الله منهم . قال النبى (ﷺ) : ويل أمه مسعر[٢٥] حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر قال : وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبى (ﷺ) تناشد بالله والرحم ، لما أرسل فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبى (ﷺ) إليهم فأنزل الله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾[٢٤]

---

(٢٤) برد : خمدت حواسه وهو كناية عن الموت ، لأن الميت تسكن حركته .

(٢٥) أى يسعرها كأنه يصفه بالأقدام فى الحرب والتسعير لنارها .

(٢٦) الفتح : ٢٤ .

وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبى الله ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت ، قال أبو عبد الله : **«معرة»** العر : الجرب . **«تزيلوا»** : تميزوا ، وحميـة القوم : منعتهم حماية ، **وأحميت الحمى** : جعلته حمى لا يدخل ، **وأحميت الرجل** : إذا أغضبته أحماء .

وقبل التعليق على هذه القصة ، يجدر بنا التعرف على «الحديبية» قيل : هى بئر سمى المكان بها ، وقيل : شجرة حدباء صغرت وسمى المكان بها . وقال المحب الطبرى : الحديبية قرية من مكة أكثرها فى الحرم ومن دروس هذه القصة وعبرها ، بعض معجزات رسول الله (ﷺ) الظاهرة . وهى كثرة الماء ، وقد حدثت هذه المعجزة عندما نزلوا بأقصى الحديبية على حفرة صغيرة فيها ماء قليل . وكانوا يأخذون منه قليلا قليلا بنحو الكفين .

فلما شكوا إلى رسول الله (ﷺ) العطش ، أخرج سهما من جعبته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيها .

فما زال يجيش لهم بالرى أى يفور حتى صدروا عنه أى رجعوا رواء بعد وردهم .. ومعجزة تكثير الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة ثابتة فى مواطن كثيرة .

وبينما القوم كذلك إذ جاء بديل مخبرا عن الجموع التى تجمعت

ومعهم العوذ المطافيل وهى الأمهات اللاتى معها أطفالها يريد أنهم خرجوا بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يمنعوه ، أوكنى بذلك عن النساء معهن الأطفال ، والمراد أنهم خرجوا معهم بنسائهم وأولادهم لإرادة طول المقام ، ليكون أدعى إلى عدم الفرار ، لقد خرجوا مقاتلين صادين عن البيت .

فقال رسول الله (ﷺ) : **إنَّا لَم نَجِىء لِقِتَالِ أَحدٍ وَلَكِنَّا جِئنَا مُعْتَمِرينَ وَإِنَّ قُريشًا قد نَهَكَتهُم[27] الحربُ وَأَضَرَّت بهم .**

ثم جاء سهيل بن عمرو وتمت كتابة بنود الصلح وكان من بينها أن من ذهب إلى المسلمين ردوه ، ومن جاءهم من المسلمين لا يردونه عليهم .

وعندئذ قال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ والتفتوا يسألون رسول الله (ﷺ) : أتكتُبُ هذا يارسول الله ؟ قال : «**نَعَم ، إنَّهُ مَن ذَهَبَ مِنَّا إليهِم فَأَبعَدَهُ الله ، وَمَن جَاءَنَا مِنهُم فَسَيجعَل الله لَهُ فَرجًا وَمَخرَجا**» رواه مسلم .

- وكانت مدة الصلح عشر سنين ، وذلك أحد بنود الصلح ويتضمن وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين يكون الناس فيها آمنين ، ويكف بعضهم عن بعض فيها فلا سرقة ولا خيانة .

---

(٢٧) نهكتهم : أضعفتهم .

- ومن بنود الصلح أيضا : أن من أتى محمدًا بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

- وأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فدخلت خزاعة فى عهد رسول الله (ﷺ) ودخلت بنو بكر فى عقد قريش .

- وأن يرجع الرسول (ﷺ) هذا العام دون عمرة ، فإذا كان العام القابل خرج عنها المشركون فيدخلها المسلمون ويقيمون ثلاثا ليس معهم سلاح إلا السيوف فى أغمادها[٢٨] .

ولقد قبل الرسول (ﷺ) هذه الشروط على ما فيها من ظلم وإجحاف ، لثقته فى ربه سبحانه وتعالى وأنه سينصره ، ويجعل للمسلمين من ضيقهم مخرجا. ورسول الله (ﷺ) وهو القائل من قبل:

وَالَّذِى نفسِى بِيَدِه لاَ يَسأَلُونَنِى خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إلاَّ أَعطَيْتُهم إيَّاهَا ..

وهكذا كان رسول الله (ﷺ) صابرا محتملا بعض التنازلات فى سبيل الصلح ، لاتباعه ما يهديه الله إليه وما يوحى له إليه وما يلهمه إياه فإن الله لا يخذله ولا يضيعه .

---

(٢٨) فتح البارى لابن حجر ، السيرة النبوية للدكتور أبى شهبة .

ولو أن رسول الله (ﷺ) اتبع ما كان يريده البعض . وتمسك برغبات بعض المسلمين لما تم الصلح .

وها هى حكمة الرسول (ﷺ) ، وتوفيق الله له وبعد نظر الرسول (ﷺ) كل ذلك يظهر واضحا عندما جاءه أبو جندل فارا من المشركين يرسف فى الحديد وقام إليه أبوه آخذا بتلابيبه وقال : يا محمد هذا أول من أقاضيك عليه أن ترده .. وكان أبو جندل يصيح : يامعشر المسلمين أُردُّ إلى المشركين ، وقد جئت مسلما ؟ فقال الرسول (ﷺ) له : **يَا أَبَا جَندَل ، اصبِر وَاحتَسِب فإِنَّ الله جَاعِلٌ لَكَ وَلِمن مَعَكَ مِنَ المستَضعَفِينَ فَرَجًا وَمَخرَجًا ، إِنَّا أَعطَينَا القومَ عُهودًا ، وَإِنَّا لاَ نَغدرُ بِهِم .**

وأصاب المسلمين لذلك همٌّ شديد على هؤلاء المستضعفين ثم جاء بعد ذلك أيضا أبو بصير من قريش وقد أسلم فأرسلوا فى طلبه رجلين فسلمه (ﷺ) لهما وقال له : **يَا أَبَا بُصَيرٍ إِنَّا قَد أَعطَينَا هَؤُلاءِ القومَ عهدًا وَلاَ يَصِحُ فِى دِيننا الغدرُ** ، فخرجا بأبى بصير حتى وصلا ذا الحليفة ، فتحايل أبو بصير على أحد الرجلين وأخذ سيفه وضربه به ، وفر الآخر يعدو ثم عاد أبو بصير إلى رسول الله (ﷺ) فقال : يانبى الله قد - والله - أوفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم فأنجانى الله منهم . وخرج إلى ساحل البحر فى طريق قريش إلى الشام وتفلت أبو جندل فلحق به ، وهكذا تفلت كل من احتجز فى مكة حتى

تكون منهم نحو السبعين رجلا فقطعوا على قريش تجارتها واعترضوا كل عير لها فأرسلت قريش إلى رسول الله (ﷺ) تناشده الله والرحم أن يقبلهم عنده ويضمهم إليه فجاءوا إلى المدينة ، ورجعوا يطلبون منه أن من أتاه مهاجرا من المسلمين فهو آمن ولا يرد ..

- وعندئذ أدرك المسلمون بعد نظر رسولهم (ﷺ) وصدق الله فراسته ، وأيقن المسلمون أن رأى الرسول (ﷺ) أعظم بركة من رأيهم .

- ويستنبط من هذه القصة ، بالإضافة إلى ما سبق : الأخذ بمبدأ الشورى فقد استشار الرسول (ﷺ) أصحابه وأشار عليه أبو بكر رضى الله عنه قائلا : إنك يارسول الله خرجت عامدا لهذا البيت فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه .

ووافقه النبى (ﷺ) أول الأمر ، حتى إذا بركت ناقته وعلم أنها ممنوعة ترك هذا الرأى إلى الأخذ بالصلح .

- كما يستنبط التبرك بآثار الرسول (ﷺ) .
- ومشروعية الهدنة بين المسلمين وأعدائهم إلى مدة معلومة .
- وأن المحصر له أن يتحلل بذبح شاة حيث أحصر ويحلق ثم ينوى التحلل مما أهل به ولا يلزمه القضاء إذا كان متطوعا .

وروى البخارى - بسنده - قال أبو وائل : كنا بصفين فقام

سهل ابن حنيف فقال : أيها الناس ، اتهموا أنفسكم فإنا كنا مع النبى (ﷺ) يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا .

فجاء عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟

فقال : بَلَى فقال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بَلَى قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : يا ابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا ، فانطلق عمر إلى أبى بكر ، فقال له مثل ما قاله للنبى (ﷺ) فقال : إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا .

فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله (ﷺ) على عمر على آخرها قال عمر : يارسول الله أَوَ فَتحٌ هو ؟ قال : «نعم» رواه البخارى .

يَوْمُ خَيْبَر

لأُعطِينَّ هَذِهِ الرَّايةَ غدًا رَجُلاً يَفتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيهِ

قال الإمام البخارى رحمه الله : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب ابن عبد الرحمن عن أبى حازم قال : أخبرنى سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال يوم خيبر : « **لأُعْطِينَّ هذه الرايةَ غَدًا رَجُلاً يفتحُ الله على يَدَيهِ ، يُحِبُّ الله ورسولَهُ ويحبُّه الله وَرَسُولُهُ** » قال : فبات الناس يدُوكون[1] ليلتهم : أيهم يُعْطَاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله (ﷺ) كلهم يرجو أن يعطاها فقال : « **أين عَلِيُّ بنُ أبى طالبِ ؟** » فقيل : هو يارسول الله يشتكى عينيه . ودعا له ، فبرأ ، حتى كأن لم يكن به وجع . فأعطاه الراية . فقال على : يارسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال : « **انفذ على رِسْلك ، حتَّى تَنزلَ بَسَاحَتِهم ثم ادْعُهُمْ إلى الإسْلام ، وأَخبِرْهُمْ بما يَجِبُ عَلَيْهِمْ من حَقِّ الله فيه ، فوالله لأَنْ يهْدِى الله بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمُرُ النعَمِ** » .

لقد اشتملت هذه القصة على بيان معجزات ظاهرة لرسول الله (ﷺ) منها القولية ، ومنها الفعلية ، **فأما القولية** : فهى إعلامه بأن الله تعالى يفتح على يدى من سيعطيه الراية ، فحدث ماقال ، وفتح

---

(١) أى باتوا فى اختلاط واختلاف .

الله على يدى على رضى الله عنه ، **وأما الفعلية** : فكما روى أنه تفل فى عين عَلِىٍّ وكان أرمد فبرأ من ساعته ، وعند الطبرانى من حديث على : «**فما رمدتُ ولا صدعتُ منذ دَفَعَ النَّبىُّ (ﷺ) إلَىَّ الرَّاية يَوْم خَيبَر**» وله من وجه آخر . «**فما اشتكيتها حتى الساعة** . قال : ودعا لى فقال : **اللَّهمَّ أَذهِب عنه الحَرَّ والقَرَّ** ، وقال : **فما اشتكيتهما حتَّى يومى هذا**» .

كما كشفت القصة عن بعض سمات الإمام على رضى الله عنه ، وهى تلك التى رشحته لتلك المكانة ، ولحمل الراية ، وهى بحق خصائص كل بطل مقدام وكل منتصر فاتح .. يفتح الله عليه ، ويؤيده بالنصر ، وفى قوله صلوات الله وسلامه عليه : «**لأُعطِينَّ هذِهِ الرَّايةَ غدًا رَجُلاً يفتحُ الله عَلَى يَدَيه**» ما يشير إلى أن الفتح من عند الله وأن النصر بيد الله تعالى ،

﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ ﴾[٢]

ولكن على يدى من يكون هذا الفتح ؟ إنه يكون على يدى من أطاع الله ورسوله ، واتبع الحق ، وسار على الجادة ، وعنوان اتباعه حبه لله ولرسوله ، وثمرة هذا الاتباع محبة الله ورسوله له ، لقد وصف الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا البطل الظافر المنتصر بأنه يفتح الله على يديه ، ويكلؤه بعنايته ، ويحدوه التوفيق والنصر ، ثم وصفه

(٢) آل عمران : ١٢٦ .

بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» وتلك منزلة عالية ، ومكانة مرموقة ، ما أن سمع الصحابة رضى الله تعالى عنهم بذلك إلا وباتوا يدوكون ليلتهم : **أيُّهم يُعطاها** ؟ أى باتوا فى اختلاط واختلاف ، وكلهم أعناق مشرئبة ، وعيون مترقبة ، وآذان مصغية ، حتى إن عمر رضى الله عنه قال : «ما أحببت الإمارة إلا يومئذ» وفى رواية : «فما منا رجل له منزلة عند رسول الله (ﷺ) إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل حتى تطاولت أنا إليها ..» .

نعم إن لكل واحد منهم أن يتمنى هذه المنزلة ، ويرجو أن يقع عليه هذا الاختيار ، الذى يتم به فتح الله على يديه ، ويحظى معه بحب الله ورسوله ، الذى هو جزاء الاتباع الكامل . والمحبة العظيمة من صاحبه ، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣]

وهكذا بات الناس ليلتهم إلى أن أصبحوا فغدوا على رسول الله (ﷺ) كلهم يرجو أن يعطاها ، ولكن وقع اختيار الرسول (ﷺ) على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان يشتكى عينيه ، وببركة رسول الله (ﷺ) وبفضل دعائه برأ بإذن الله تعالى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه رسول الله (ﷺ) الراية ، وعندئذ توجه علىٌّ

(٣) آل عمران : ٣١ .

بسؤال يستطلع به مدى مهمته العالية التى سيقوم بدوره فيها قائلا : **أُقاتلهُم حتَّى يكونوا مثلنا** ؟ أى حتى يسلموا . فقال له : «**انفُذ عَلَى رِسلِكَ حتَّى تَنزلَ بِسَاحَتِهم ، ثمَّ ادعُهم إلى الإسلامِ ، وَأَخبِرهُم بما يَجبُ عَلَيهِم مِن حقِّ الله فيه ، فوالله لإن يَهدِى الله بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خيرٌ لَكَ مِن أن يَكُونَ لَكَ حُمُرُ النعمِ**» وهو من ألوان الإبل المحمودة ، وكانت مما تتفاخر العرب بها .

وقد ذكر ابن إسحاق من حديث أبى رافع قال : «خرجنا مع علىٍّ حين بعثه رسول الله (ﷺ) برايته ، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه ، فتناول عَلىٌّ بابًا كان عند الحصن فتترَّس به عن نفسه حتى فتح الله عليه ، فلقد رأيتنى أنا فى سبعة ، أَنَا ثَامِنُهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه» وللحاكم من حديث جابر أن عليًّا حمل الباب يوم خيبر وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلا» .

لقد زوده رسول الله (ﷺ) بتوجيهات كانت غاية فى الحكمة والرشد ، وكانت بحق معالم مشرقة أمام الدعاة والفاتحين ، فالقضية — أولا — قضية دين .. والجهاد فيها ليس إجهازا على فئة معادية إلا من أجل حماية الدعوة وتأمين طريقها ونشرها بين أرجاء الحياة ، إنه جهاد باسم الله وجهاد فى سبيل الله ، وما يحرزه من أجل الدين أعظم مما يحوزه الناس من مغانم الحياة المادية ، لقد أعلنها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه صريحة مدوية ، وأقسم على ذلك : «**فوالله لأنْ**

يهدى الله بك رَجُلاً واحِدًا خيرٌ لَكَ مِن أَن يَكونَ لَكَ حُمرُ النعمِ » .

لقد ظلت هذه العبارة النبوية الحكيمة ، مشعل نور أمام الدعاة والقادة ، ملوحة لهم ومنبهة لمسيرتهم عبر الحياة ، أن الدعوة إلى هدى الله ، وأن الكسب بانضواء الناس تحت راية التوحيد· هو أجل المغانم وأربحها ولو كان رجلا واحدا ....

غزوة خيبر وزواج الرسول (ﷺ) بالسيدة صفية

من قصص السنة الشريفة ، ما جاء فى غزواته صلوات الله وسلامه عليه ، واشتمل - مع هذا - على كثير من الأحكام والحكم والتشريعات :

قال الإمام البخارى رحمه الله : حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا إسماعيل بن علية قال : حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس أن رسول الله (ﷺ) غزا خيبر فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس فركب نبى الله (ﷺ) ، وركب أبو طلحة ، وأنا رديف أبى طلحة ، فأجرى نبى الله (ﷺ) فى زقاق خيبر وإن ركبتى لتمس فخذ نبى الله (ﷺ) ثم حسر الإزار عن فخذه حتى أنى أنظر إلى بياض فخذ نبى الله (ﷺ) فلما دخل القرية قال : « **الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين** » قالها ثلاثا ، قال : وخرج القوم إلى أعمالهم فقالوا : محمد ، قال عبد العزيز : وقال بعض أصحابنا والخميس يعنى الجيش ، قال : فأصبناها عنوة فجمع السبى ، فجاء دحية فقال : يانبى الله أعطنى جارية من السبى قال : **اذهب فخُذْ جارية** ، فأخذ صفية بنت حيى ، فجاء رجل إلى النبى (ﷺ) فقال : يا نبى الله أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة

والنضير ، لا تصلح إلا لك ، قال : **ادعوه بها** ، فجاء بها ، فلما نظر إليها النبى (ﷺ) قال : **خذ جارية من السبى غيرها** . قال : فاعتقها النبى (ﷺ) وتزوَّجها ، فقال له ثابت : يا أبا حمزة ما أصدقها ؟ قال : نفسها ، أعتقها وتزوجها ، حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح النبى (ﷺ) عروسا ، فقال : **مَن كَانَ عِندَهُ شَىءٌ فَلْيجِئْ بِهِ** ، وبسط نطعا ، فجعل الرجل يجىء بالسمن ، قال : وأحسبه قد ذكر السويق ، قال : فحاسوا حيسا ، فكانت وليمة رسول الله (ﷺ) .

وفى هذه القصة عدة أمور وفوائد ، إنها تكشف عن حقائق علمية هامة ، وعن أحكام تشريعية لها أثرها ووزنها ، ففيها : بيان لإحدى الغزوات الهامة ، وفيها توضيح لبعض أحكام شرعية ، لها أكبر الصلة بفريضة من أهم الفرائض وهى الصلاة ، وفيها ما يتعلق ببعض ما يتصل بالزواج من وليمة ، وبهذا نرى كيف تمدنا القصة الواحدة من قصص السنة بفيض غامر من العطاء العلمى والدينى ، وما ذلك إلا لأنها جرت مع رسول الله (ﷺ) الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .. وفى كل أقواله وأفعاله ومغازيه وأحواله ، ما ينير الطريق أمام المسلمين ، وما يكشف عن الحقائق أمام كل باحث فى السنة ، متطلع إلى توجيهاتها وأحكامها .

أما عن الغزوة فقد كانت مع فرقة من أعتى فرق اليهود بأسا ،

ومن أكثرهم سلاحا وحصونا ، وقد ضيق المسلمون عليهم الحصار على حصونهم ، واستمات اليهود فى الدفاع ، لأنهم يعلمون أن هزيمتهم فى هذه الغزوة تعنى القضاء النهائى على آخر صفحة لهم فى جزيرة العرب .. ولكن المسلمين بفضل إيمانهم بالله وجهادهم فى سبيله ، كان النصر لهم ، وتهاوت أمام جهادهم واستبسالهم حصون القوم حصنا بعد حصن ، حتى استولى اليأس عليهم ، وأحاطت الهزيمة بهم ، وطلبوا من النبى (ﷺ) الصلح وحقن الدماء .

وأما ما اشتلمت عليه القصة من حكم شرعى له صلة بالصلاة فهو ما ورد فى شأن العورة ، وانكشاف الفخذ ، للتمكن من سوق مركوبه أو دابته «حسر الإزار عن فخذه» فقال البعض أنه ليس بعورة ، ولكن قيل بالضم حسر» أى أنه قد كشف بغير اختياره لضرورة إجرائه فلا دلالة حينئذ على أنه ليس بعورة وهذا هو اللائق بحاله عليه الصلاة والسلام ، وبهذا قال الجمهور من التابعين ، وأبو حنيفة . ومالك فى أصح أقواله والشافعى وأحمد فى أصّح روايتيه وأما ما يتصل بزواج رسول الله (ﷺ) من السيدة صفية ، فمعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يرد بزواجه إشباع غريزة الجنس والشهوة ، كما يفترى أعداء الإسلام الذين يحاولون إثارة الشبه حول مقامه الشريف ، وإنما كان فى هذا الزواج تكريم للسيدة صفية لما لها من مكانة فى قومها ونسب ، وفيه عزاء لها ، حيث قتل أبوها

وزوجها وكثير من قومها ، فقد كان فى وسعه (ﷺ) أن يتركها مملوكة ، ولكنه ضرب أروع الأمثلة فى التسامح وإعزاز وإكرام عزيز القوم .. ولما أعرس بها رسول الله (ﷺ) بات أبو أيوب الأنصارى يحرسه ، فلما أصبح قال : «**مالك يا أبا أيوب ؟** » قال : يارسول الله خفت عليك من هذه المرأة ، وقد قتل أبوها ، وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر . فَسُرَّ الرسول صلوات الله وسلامه عليه بصنيعه هذا وقال : «**اللهمَّ احفظ أَبَا أَيُّوب كما بات يحرسنى**» .

وقد خير رسول الله (ﷺ) السيدة صفية بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فآثرت رسول الله والدار الآخرة على العودة إلى أهلها .

واشتملت هذه القصة كذلك على مشروعية الوليمة ، وأنها بعد الدخول ، وجوز النووى كونها قبله أيضا لكن بعد العقد وأن السنة تحصل بغير اللحم ، وفيها أيضا : مساعدة الأصحاب بطعام من عندهم .

عُمْرَةُ القَضَاءِ

بعد أن رجع رسول الله (ﷺ) من «خَيْبر» إلى المدينة ، خرج (ﷺ) فى شهر ذى القعدة من السنة السابعة من الهجرة متجها إلى مكة المكرمة لأداء العمرة على ماعاهد عليه قريشا فى الحديبية .. ودخل مكة وأدّى العمرة ، ولكن بعض المشركين قعدوا فوق جبل قُعَيقعان بمكة ، ينظرون إلى المسلمين وهم يطوفون وكأنهم يحبون أن ينظروا إلى ضعفهم وفى نفوسهم أحقاد عليهم ، فأمر الرسول (ﷺ) المسلمين عند طوافهم بالرَّمَل وهو نوع من الهرولة والسّرعة فى المشى بين الجرى والمشى السريع مع هز الكتفين ، حتى يرى أعداؤهم من المشركين أنهم أقوياء وليسوا ضعفاء ، لأن المشركين كانوا يشيعون على المهاجرين أنهم قد أضعفتهم الأمراض ، ووهنتهم حمى يثرب .. وبعد ذلك تزوج الرسول (ﷺ) السيدة ميمونة بنت الحارث (رضى الله عنها) وبنى بها بمكان يسمى (سرف) .

وأسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة قبل عمرة القضاء ، وقيل بعدها (رضى الله عنهم أجمعين) .

غَزْوَةُ مُؤْتَةَ

«مؤتة» : هى قرية بأرض «البلقاء» بطرف الشام ، وكانت هذه الغزوة فى جمادى الأولى عام ثمان من الهجرة ، حيث جهز رسول الله (ﷺ) جيشا لمواجهة الذين قتلوا الحارث بن عمير الأزدى رسولَ رسولِ الله (ﷺ) إلى أمير بصرى يدعوه إلى الإسلام . وروى أن النبى (ﷺ) كان قد أرسل سَرية إلى «ذات الطلح» على حدود الشام ليدعو الناس إلى الإسلام فقتلوا ولم يبق إلا رئيسهم .

وأمَّرَ رسول الله (ﷺ) على الجيش فى هذه الغزوة زيد بن حارثة وقال : «**إنْ أصيبَ زيدٌ فجعفرُ بن أبى طالب وإن أُصيبَ جعفرٌ فعبدُ الله بنُ رَوَاحَة**» ، وكان عدد الجيش ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار ، وودّعهم رسول الله (ﷺ) موجّها لهم وناصحا وقائلا : «**اغزوا باسم الله ، قاتلوا عدوَّ الله وعدوَّكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرَّضُوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرًا ولا شيخا فانِيًا ولا تقطعوا شجَرًا ولا تهدموا بناء**» .

فلما وصلوا «معانًا» وهو حصن كبير من أرض الشام وصلهم نبأ وصول «هِرَقل» ملك الروم فى ناحية البلقاء فى مائة ألف من الروم ، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب أهل البلقاء من «لخم» و«جذام» وقبائل «قضاعة» من «بهراء» و«بلىّ» و«بَلقَين» ، وعليهم واحد من بنى «إراشة» يقال له «مالك بن رافلة» ، وبعد ليلتين قالوا : **نكتب إلى رسول الله (ﷺ) نعلمه بعدد الأعداء** ، فقال لهم عبد الله بن

رواحة : **ياقوم ، إن التى تطلبون قد أدركتمُوها** - يعنى الشهادة - **وما تُقاتلُ الناسَ بعدَدٍ ولا قوَّةٍ وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فهى إحدى الحُسْنَيين إما ظهورٌ وإما شهادة** ، فوافقه الجيش كله على هذا الرأى ، والتقوا بأعدائهم عند قرية يقال لها : «مشارف» وصار المسلمون فى قرية «مؤتة» فلما اقتتلوا ، استشهد الأمير الأول وهو زيد بن حارثة فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب حتى قطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت ، فاحتضن الراية فقتل (رضى الله عنه) وعمره ثلاثة وثلاثون عامًا ، وكان جزاء جعفر عند ربه سبحانه وتعالى أن أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء .

ثم أخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة فاستشهد فأخذ الراية ثابت ابن أقرم أخو بنى العجْلان وقال : **يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم** ، قالوا : **أنت** ، قال : **لا** ، فدفع الراية إلى خالد بن الوليد ، وقال : **أنت أعلم بالقتال منى** ، فأخذها خالد بن الوليد ، وانحاز بالمسلمين وأنقذه ، وعندما أقبل الليل ، انتهز خالد بن الوليد الفرصة وغير نظام الجيش ، فجعل المقدة ساقة ، والساقة مقدمة والميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة وصف صفا طويلا وراء الجيش ، فلما أصبحوا أنكرت الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم وسمعوا الجلبة وأصوات الأسلحة فظنوا أن المسلمين جاءهم مدد فأصابهم الرعب وخاف الروم أن يستدْرجوا إلى الصحراء وعلم رسول الله (ﷺ) بوحى ربه إليه ما جرى فقام على المنبر فقال :

«أخذ الرايةَ زيدٌ فأصِيبَ ثم أخذها جَعْفَرٌ فأصِيبَ ثم أخذها ابنُ رواحةَ فأصِيبَ - وعيناه تذرفان - **حتى أخذَ الرايةَ سيفٌ من سيوف الله حتى فتحَ الله عليهم»**[1] . ولذا لقب خالد بسيف الله المسلول من يومئذ ، وعندما خرج الرسول (ﷺ) والمسلمون لملاقاة الجيش عند عودته قال البعض : **يا فرّار فررتم فى سبيل الله** ، وأخذوا يحثون عليهم التراب ، فقال رسول الله (ﷺ) : **«ليسُوا بالفُرَّارِ ولكنَّهم الكُرَّارُ إن شاءَ الله»** .

وقال عليه الصلاة والسلام - عندما سمع صياح أهل جعفر - **«لا تغْفُلوا عن آلِ جَعْفَر أن تصنَعُوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحِبِهم»** .

---

(١) رواه البخارى .

غَزْوةُ ذاتُ السَّلاَسِل

سميت بهذا الاسم ، لأن المشركين ارتبط بعضهم ببعض مخافة الفرار ، وقيل : سميت باسم ماء بأرض جُذام يسمى «السلسل» وهى وراء وادى القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام .

وقد حدثت فى جمادى الآخرة سنة ثمان . حين علم الرسول (ﷺ) أن بعض قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء القرى ليغيروا على المدينة . فأرسل إليهم عمرو بن العاص فى ثلاثمائة من خيار المسلمين ، لأن أم عمرو من (بلىّ) وفى هذا تأليف للقوم ، فلما رأى كثرة عددهم أرسل إلى رسول الله (ﷺ) يطلب منه المدد فندب المهاجرين والأولين ، فانتدب أبو بكر وعمر فى مائتين من سراة المهاجرين وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، وقال له : «**إذا أنتَ قَدمْتَ على صَاحِبِكَ فتطاوَعَا ولاَ تختلِفا**» وقد نفَّذ أبو عبيدة هذه الوصية عندما جرى حوار بينه وبين عمرو فقال أبو عبيدة : «**ان رسول الله (ﷺ) قال لى : لا تختلفا وإنك إن عصيتنى أطعتك**» فحسم الخلاف .

وسار عمرو بمن معه حتى بلغ بلاد «بلى» و«عذرة» وكان الناس الذين يلقاهم المسلمون يتفرقون إلى إن بلغوا بلى وعذرة فالتقوا بجمع ليس كبيرا فتقاتلوا وترامو بالنبال وحمل المسلمون عليهم وهزموهم وعاد المسلمون منتصرين ..

هذا وقد أطلع المسلمون أعداءهم على قوتهم وهيبتهم ودخل كثير من القبائل فى الاسلام وفى حلف المسلمين ، وفى طريقهم أصيب

عمرو بجنابة من أثر الاحْتلام روى البيهقى - بسنده عن أبى بكر بن حزم قال : **كان عمرو بن العاص حين قفلوا احتلم فى ليلة باردة ، كأشدّ ما يكون البرد ، قال لأصحابة ما ترون ؟ قد - والله - احتلمت وإن اغْتَسَلْتُ مُتُّ ، فدعا بماء فتوضأ ، وغَسَلَ فرجه ، وتيمَّمَ ، ثم قام** فصلّى بهم ، فكان أول من بعثَ عوفُ بنُ مالك بريدًا ، قال عوفٌ : **فَقَدِمْت على رسول الله (ﷺ) فى السَّحَر وهو يصلى فى بيته ، فَسَلَّمْتُ عليه ، فقال رسولُ الله (ﷺ) : «عوف بن مالك؟» قلتُ : نعم عوفُ ابن مالك يارسول الله ، قال : «صاحب الجزْور؟» قلت : نعم ، لم يزِدْ على هذا بعد ذلك شيئا ، ثم قال : «أخبرنى» ، فأخبرته بما كان من مسيرنا ، وما كان بين أبى عبيدة بن الجراح وبين عمرو ومُطَاوَعَةِ أبى عُبَيدَة ، فقال رسول الله (ﷺ) : «يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح» ثم أخبرته أن عمروا صلَّى بالناس وهو جنب ومعه ماء ، لم يزد على أن غسل فرجه وتيمّم ، فَأَسْكَتَ رسولُ الله (ﷺ) فلما قَدِم عمرو على رسول الله (ﷺ) ، سأله عن صلاته فأخبره ، فقال : والذى بعثك بالحق لو اغْتَسلْتُ لَمُتُّ ، لم أجد بردًا قط مِثْله وقد قال الله عز وجل : ﴿ولا تَقْتُلوا أنفُسَكُمْ إنَّ الله كانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ، فضحك رسول الله (ﷺ) ، ولَمَ يَبْلغْنا أنه قال له شيئا .**

وقد أخرج هذه القصة أيضا الحاكم فى «المستدرك» وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقرّه الذهبى .

وروى هذه القصة أبو داود - بسنده - عن عمرو بن العاص

رضى الله عنه قال : **احتلمت في ليلةٍ باردَةٍ فى غزوةِ ذاتِ السلاسل ، فأشفقت إن اغْتَسَلْتُ أن أهلِك ، فتيمّمْتُ ثم صليت بأصحابى الصبح ، فذكروا ذلك للنبى (ﷺ) فقال : «يا عمرُو ، صليتَ بأصحابِكَ وأنتَ جنُبٌ ؟» فأخبرته بالذى منعني من الاغتسال ، وقلت : إنى سمعت الله يقول : «ولا تقْتُلُوا أنفُسَكُمْ إنَّ الله كانَ بِكُمْ رحيما»** فضحك رسول الله (ﷺ) ولم يقل شيئا وروى هذه القصة أيضا الأمام أحمد فى مسنده .

وفى هذه القصة بيان لسماحة التشريع الاسلامى فإن إقرار الرسول (ﷺ) لعمرو بن العاص على اجتهاده هو من رحمة التشريع الاسلامى وسماحته **﴿يريدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بِكُمَ العُسْرَ﴾** .

وفى رواية البيهقي : **«فَأَسْكَتَ رسولُ الله ﷺ»** أى أطرق من فكرة أى طرق يفكّر فى الأمر ، وكلمة (سَكَتَ) : معناها : تعمّد السكوت أما : (أسْكَتَ) فمعناها أطرق من فكرة ، أو داء ، أو فَرَق[1] .

وفى القصة من الدروس - إلى جانب سماحة التشريع الإسلامى - جواز الاجتهاد حتى فى عصر النبوّة حيث اجتهد عمرو بن العاص (رضى الله تعالى عنه) فتيمّم خوفا من شدة البرد فقد خاف على نفسه الموت لو اغتسل بالماء البارد فى الليلة الباردة التى وصفها بقوله **«كأشَدِّ ما يكونُ البردُ»** .

كما أن فى القصة من الدروس ما كان بين أبى عبيدة وعمرو بن

---

(١) لسان العرب .

العاص (رضى الله عنهما) من مُطَاوعة مما يدل على أن على المسلمين وعلى ولاة الأمر ألا يتفرقوا ، وعليهم أن يتطاوعوا على الحق ، وأن يحسموا أى خلاف يدبُّ بينهم ، كما أمر الله تعالى بوحدة المسلمين ﴿**واعتَصِمُوا بحَبْلِ الله جميعًا ولا تفرَّقُوا**﴾ وكما نهاهم عن التنازع فى قوله سبحانه : ﴿**ولا تَنَازَعُوا فتفْشَلُوا وتذهبَ رِيحُكُمْ واصْبِرُوا إن الله مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ .

فَتْــــحُ مَــكَّـةَ

وفى سنة ثمان من الهجرة شاء الله تعالى أن يكون فتح مكّة على رسول الله (ﷺ) ، وكان السبب فى ذلك ما حدث بين حلفاء قريش وحلفاء الرسول (ﷺ) ، فقد نقضت «بنو بكر» صلح الحديبية ، وكانوا فى حلف مع قريش فاعتدوا على «خُزاعة» وكانوا فى حلف مع رسول الله (ﷺ) وقتلوا منهم بعض الرجال ، ولما علم الرسول (ﷺ) بنقض قريش للعهد تجهّز وأمر الناس أن يستعدوا للمسير إلى مكة ، وكانت هناك امرأة من «مُزينة» جاءت المدينة تسأل رسول الله (ﷺ) بالرحم أن يعطيها شيئا فجمع لها مالا ومتاعا ورجعت إلى مكة ، فحملها حاطب بن أبى بلغة كتابا لتوصله إلى قريش فتخبرهم بما أجمع عليه الرسول (ﷺ) من الأمر للسير إليهم ، فوضعت الكتاب فى رأسها وخرجت ، وأوحى الله تعالى إلى رسوله (ﷺ) بما صنع حاطب فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فى طلبها . روى البخارى - بسنده - عن علىٍ رضى الله عنه قال : **بعثنى رسول الله (ﷺ) أنا والزبير والمقدادَ فقال : «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[1] فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها» فانطلقنا تَعَادَى بنا خلينا ، حتى انْتَهَيْنَا إلى الرَوْضَةِ ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب. فقالت : ما معى كتاب ، فقلنا**

---

(١) موضع بقرب حمراء الأسد وهو بين مكة والمدينة على اثنى عشر ميلاً .

لَتُخرجن الكتاب أو لَتُلْقِيَنَّ الثياب ، فأَخْرجَتْه من عِقَاصِها[١] فأتينا به رسول الله (ﷺ) ، فإذا فيه : من حاطِب بن أبي بلعتة إلى أناسٍ من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله (ﷺ) ، فقال رسول الله (ﷺ) : «يا حَاطِبُ ما هذا ؟» قال : يارسول الله لا تعْجَلْ عليَّ إني كنت أمرءا ملصقا في قريش ، ولم أكن من أنفُسِها ، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمونه بها أهلهم وأموالهم ، فأحببْتُ إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يَحمُون بها قرابتي ، ولم أفعله وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رِضاءً بالكُفْر بعد الإسلام ، فقال رسول الله (ﷺ) : «قد صَدَقَكُمْ» فقال عمر رضي الله عنه : يارسول الله دعْني أضربْ عنق هذا المنافق . فقال رسول الله (ﷺ) : «إنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله يكونُ قَدِ اطَّلَعَ على مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فقال : ﴿اعملوا ما شِئْتُمْ فقد غَفَرْتُ لَكُمْ﴾» فأنزل الله السورة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾[٢]

---

(١) هو الشعر المعقوص شبه المضفور .

(٢) سورة الممتحنة : (١) .

وفى رواية أخرى فى صحيح البخارى أيضا : **فقال عمر بن الخطاب : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى أضرب عنقه قال : فقال : «يا عُمَرُ وما يدريك لعلَ الله قد اطَّلعَ على أهل بدر ،** فقال : ﴿**اعملوا ما شئتم فقد وجَبَتْ لكُم الْجنَّة**» قال : **فَدمِعَتْ عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .**

ولهذا الحديث رواية فى صحيح الإمام مسلم :

روى مسلم - بسنده - عن الحسن بن محمد أخبرنى عبيد الله ابن أبى رافع وهو كاتب عَلِىّ قال : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : بعثنا رسول الله (ﷺ) أنا والزبير والمقداد فقال ائتوا «روضة خاخ» فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادَى بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة فقلنا : أخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى الكتاب : فقلنا لتُخْرِجنَّ الكتاب أو لتُلْقِينَّ الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله (ﷺ) فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله (ﷺ) ، فقال رسول الله (ﷺ) : «يا حاطب ما هذا ؟» قال : لا تعجل علىّ يارسول الله إنى كنت امرءًا ملصقا فى قريش ، قال سفيان : كان حليفا لهم و لم يكن من أنفسها ، وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم فأحببتُ إذ فاتى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً[1] يحمون بها قرابتى ، و لم أفعله كفرا ولا ارتدادًا عن دينى ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام ، فقال النبى (ﷺ) : «صدق» فقال عمر : دعنى يا رسول الله اضربْ عنق هذا

(١) يدًا : أى منة ونعمة وجميل .

المنافق فقال : «**إنه قد شَهِدَ بَدْرًا وما يُدْرِيك لعل الله اطَّلَعَ على أهل بَدْرٍ**» فقال : ﴿**اعمَلُوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم**﴾ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿**ياأيها الذين أمنوا الا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وعَدُوكُمْ أولياءَ**﴾ .

وفى هذه القصة معجزة واضحة لرسول الله (ﷺ) حيث أخبر عن شأن هذه المرأة وما تحمله من كتاب ، وما فى هذا الكتاب وهو لا علم له بها ولا بما تحمله من قبل ولم يخبره بذلك أحد ﴿**إنْ هُوَ إلا وَحْىٌ يُوحَى**» واسم هذه المرأة : سارة مولاة لعمران بن أبى صيفى القرشى .

ولعل هذا الحديث يشير إلى النظر فى «**حكم الجاسوس**» ومذهب الشافعى وطائفة أنه يُعَّزر ولا يجوز قتله ، ويرى بعض المالكية انه يقتل إلا إذا تاب ، ويرى البعض أنه يقتل وإن تاب ، وقال مالك : يجتهد فيه الإمام[١] .

ويرى العلماء أن المراد بقوله (ﷺ) : «**اعمَلُوا ما شِئْتُم فقد غَفَرْتُ لكم**» أن الغفران لهم فى الآخرة وإلا فإن توجّه على أحد منهم حدٌّ أو غيره أقيم عليه فى الدنيا .

ونقل القاضى عياض الإجماع على إقامة الحد ، وأقامه عمر على بعضهم ، قال : وضرب النبى (ﷺ) مِسْطَحًا الحدَّ وكان بَدْرِيًّا[٢] وليس فى قوله (ﷺ) : «**اعملوا ما شئتم ...**» إلخ إغراء بالتجاوز

(١) شرح النووى على صحيح مسلم .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم .

أو فعل المعاصى ، فإن رسول الله (ﷺ) لا يأمر إلا بالمعروف ولا ينهى إلا عن المنكر ، وإنما هذا القول محمول على الغفران فى الآخرة كما سبق أو أنها تقع مغفورة لما يوفق الله تعالى أهلها إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى بسرعة ، أو أن الله تعالى يوفق أصحابها فلا يقعون فيما يغضب الله سبحانه .

كما يستنبط من القصة أنه لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا عدوَّ الله وعدوَّهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، إذ أن آيات القرآن الكريم واضحة صريحة فى جعل الولاء لله تعالى ولهذا الدين الحنيف .

ولنا وقفة مع إنسانية الرسول (ﷺ) وشفقته ورحمته بحاطب بن أبى بلتعة ، لقد راعى الرسول (ﷺ) فى حاطب جانبه البشرى الذى يغشاه - عادة - الضعف ، ويمسه طائف من الشيطان ، فيعود ويتذكر ويثوب إلى رشده ، وكل إنسان بصدد أن يتعرض للخطأ ، لأن كل بنى آدم خطاء ، والمعصوم من عصمه الله ، وقد رحم رسول الله (ﷺ) ضعف حاطب ، وقبل عُذْره وصدَّق قوله .

وهكذا نقضت قريش «عهد الحديبية» ، وكان فى بنود الصلح أنه من شاء دخل فى عقد قريش ومن شاء دخل فى عهد رسول الله (ﷺ) ، فدخلت «خُزاعة» فى عقد محمد وعهده ، ودخلت «بنو بكر» فى عقد قريش وعهدهم ، وبعد مدة وثب «بنو بكر» حلفاء قريش على «خزاعة» حلفاء الرسول (ﷺ) على غفلة منهم ودون سبب وساعدت قريش حلفاءها وكانت الموقعة عند ماء خزاعة يسمى

«الوثير» ، فأسرع عمرو بن سالم الخزاعى وذهب وأخبر رسول الله (ﷺ) بما حدث وأنشد قصيدة جاء فيها :

هم بيتونا بالوثير هُجدا وقتلونا ركعا وسجدا

فقال له رسول الله (ﷺ) : «**نصرت يا عمرو**» فأمر الرسول (ﷺ) بالجهاد والدفاع عن الحق وعزم أن ينقى البيت الحرام من الوثنية وأن يطهره للطائفين والعاكفين والركع السُّجُود .. وحاول أبو سفيان أن يجدِّد العهد الذى نقضته قريش فلم يجد عونا على ذلك ، بل إن ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله (ﷺ) وصلت بها كراهية الشرك أنها طوت فراش رسول الله (ﷺ) حتى لا يجلس عليه أبوها ، فلما سألها : **أرغبت بى عن الفراش أم رغبت بالفراش عَنّى** ؟ قالت : **هو فراشُ رسولِ الله وأنت مُشرك نجس** ، فانصرف مغضبا وقائلا : **والله لقد أصابَكِ من بعدى شَرٌّ** .. وهذا زعمه الباطل ، وإنما هى على الحق الذى آثرته على كل شىء مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

(١) سورة التوبة : (٢٤) .

وتوجّه الرسول (ﷺ) بعشرة آلاف مسلم يوم الأربعاء بعد العصر لعشر ليال خلون من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة ، حتى إذا بلغ «الكديد» أخذ إناء فشرب منه ثم قال: «**أيها الناسُ مَنْ قَبلَ الرخصةَ فَإنَّ رسولَ الله** (ﷺ) **قبلها ومَنْ صَامَ فإنَّ رسول الله** (ﷺ) **قد صَامَ**» ، ووصل الجيش «مَرَّ الظهران» بالقرب من مكة وعسكر الجيش هناك ، فلما مرّ بأبى سفيان بعد أن أمّنه العباس (رضى الله عنه) قال للعباس : **يا أبا الفضل ، لقد أصبحَ مُلْكُ ابنِ أخِيكَ عظيما** ، فقال العباس : **ويحك إنه ليس بِمُلكٍ ولكنها نبوة** قال ابو سفيان : نعم ..

ولقد أجار العباس أبا سفيان وأردفه خلفه على بغلة رسول الله (ﷺ) ، وعندما نزلا لحق بهما عمر رضى الله عنه فقال : **يارسول الله هذا عدوُّ الله أبو سفيان قد أمكننا الله منه من غير حرب ولا حلف بيننا وبينه ولا عهد** ، فقال العباس : **يا رسول الله ، إنه فى جوارى** ، فقال له (ﷺ) : «**هو فى جوارك فأذهب به إلى رَحْلِكَ فإذا أصبحت فائتِنِى به**» ، فذهب به العباس إلى رحله ، وفى الصباح ذهب به إلى رسول الله (ﷺ) فقال له : «**أما آن لك يا أبا سفيان أن تشهد إلا إله إلا الله؟**» فقال أبو سفيان : أما والله لو كنت أعلم أن معه آلها آخر لطلبت من ذلك الإله أن ينصرنا عليك ، فقال له النبى (ﷺ) : **أما آن لك أن تشهد أنى رسول الله ؟** فقال أبو سفيان : **أما هذه ففى النفس منها شيء** ، فقال العباس : **قلها قبل أن تنزل رأسك عن جسمك** ، فقال أبو سفيان : **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله** وأسلم وحسن اسلامه وقال

العباس : **يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فأجعل له من الأمر شيئا** ، فقال رسول الله (ﷺ) : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ومن أغلق باب داره عليه فهو آمن ..»

ودخل (عليه الصلاة والسلام) مكة وهو مطأطىء رأسه تواضعا لله تعالى مُحذِّرا من إراقة الدماء ، وعندما سمع سعد بن عبادة وهو أحد قادة الجيش يقول : «**اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة** عزله النبى (ﷺ) ، موجها أنه يوم المرحمة وليس يوم الملحمة .. وأول عمل له هو أنه طاف بالبيت سبعا وعندما رأى صور الملائكة فى البيت فى صورة النساء وراى صورة ابراهيم عليه السلام فى يده الأزلام قال : «**قاتلهم الله ما شأنُ إبراهيم والأزلام .. ما كان إبراهيمُ يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفًا مُسْلما وما كان من المشركين**» وأمر بطمس الصور كلها وحطم الأصنام مردِّدا قول الله تعالى:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[1]

وعندما اجتمعت قريش قال لهم : «**يا معشرَ قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟**» فقالوا : **خيرا أخ كريم وابن أخ كريم** ، فقال وهو يبكى : «**اذهبُوا فأنتم الطلقاءُ أقولُ لكم ما قَالَه أخى يُوسُفُ لإخوته** :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2]

---

(١) سورة الإسراء : (٨١) . (٢) سورة يوسف : (٩٢) .

غـزْوَةُ «حُـنَـيْـن»

حدثت غزوة حُنين(١) فى السنة الثامنة الهجرية ، وذلك عندما رأت قريش النصر والفتح الذى أحرزه رسول الله (ﷺ) والمسلمون خاصة بعد فتح مكة ، أخذت تجمع قواها وانضمت إليها ثقيف وقبائل كثيرة تحت قيادة مالك بن عوف النضرى ، حيث أمر أن يأخذ كل إنسان معه أهله وماله وأولاده ، وقال لهم : **إذا رأيتم المسلمين فشدُّوا عليهم شدة رجل واحد** .. وأرسلوا بعض الجواسيس لتأتيهم بأخبار رسول الله (ﷺ) ، فعادوا وهم فى رعب ، فقال لهم قائدهم مالك بن عوف : **ويحكم ، ما شأنكم ؟**

فقالوا : **لقد رأينا رجالا بيضا على خيل بلق فلم نملك أنفسنا حتى أصابنا ما ترى** ، ولكن أصر على اتجاهه وسار إلى رسول الله (ﷺ) ، فلما علم الرسول (ﷺ) بهم خرج لهم فى إثنى عشر ألفا من المسلمين منهم ألفان فى مكة وعشرة آلاف ممن كانوا معه فى فتح مكة يريد هوازن وثقيفا ومن ظاهرهما ، فلما قدم المسلمون وادى حنين قال قائلهم :

لن نغلب اليوم من قلة ، فلم يرعهم إلا الكتائب تنقض عليهم من ثقيف وهوازن وكانوا مختبئين وراء الوادى فانهزم الناس ، وانحاز رسول الله (ﷺ) إلى اليمين ونادى فى القَوم : **«الىّ عبادَ الله فإنى رسولُ الله وإنِّى محمدُ بن عبد الله»** .

(١) حنين : هو وادٍ من أودية تهامة متسع كثير الحدود .

أَنَـا النَّبِــيُّ لا كَــذِبَ أَنَا ابْـنُ عَبْـدِ المطَّـلِب

فثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس والفضل بن العباس وأسامة بن زيد واجتمع إليه مائة من المسلمين فاستقبلوا المشركين وقاتلوا معهم فقال عليه الصلاة والسلام : «**الآن حمى الوطيسُ**» وشَدّ المسلمون على المشركين فما مضت ساعة حتى انتصر المسلمون عليهم وولى المشركون الأدبار وتبعم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وتنزلت ملائكة الله تعالى .. وفى هذه الغزوة قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾[١]

وكان إعجابهم بكثرتهم ، حيث قال قائلهم : **لن نغلب اليوم من قلة** وكان عددهم إثنى عشر ألفا ، وكان عدد أعدائهم أربعة آلاف فلم تنفعهم الكثرة ، لأن النصر ليس بكثرة العدد بل هو بيد الله الواحد الأحد ، قيل للبراء بن عازب : **أفررتم عن رسول الله (ﷺ) يوم حُنين ؟** فقال البراء : **أشهد أن رسول الله (ﷺ) لم يفر ، ولقد رأيته**

(١) سورة التوبة : (٢٥ ، ٢٦) .

على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها يقودها فلما غشية المشركون فجعل يقول :

أنــا النبــى لا كــذب أنا ابــن عبــد المطــلب

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين وقال : «شاهت الوجوه» ففروا ، فما بقى أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه . ثم أنزل الله تعالى السكينة ، بالأمن والطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين ﴿وأنزل جنودًا لم تَرَوْهَا﴾ وهى الملائكة ﴿وعذَّبَ الذين كفروا وذلك جزاءُ الكافرين﴾ الهزيمة والعقوبة لمن كفروا بالله سبحانه .

غَزْوَةُ «الطَّائِفِ»

حدثت غزوة «الطائف» فى السنة الثامنة من الهجرة ، وكان سببها أن المشركين المنهزمين تجمعوا فى الطائف متحصنين بها وعلم الرسول (ﷺ) أنهم تأهّبوا لقتاله مرة أخرى فاتجه إليهم ومن معه من المسلمين ونزلوا بالقرب من «الطائف» بوادى «العقيق» وحاصروهم بضعا وعشرين ليلة .. وقاتلهم وكان أول من رمى بالمنجنيق .

والمِنْجَنيق : هو آلة قديمة من آلات الحروب التى كانت تستخدم فى الضرب والهدم والحصار وكانوا يرمون بالمنجنيق الحجارة الثقيلة على الأسوار فتهدمها .

وكان الاتجاه إلى «الطائف» بعد الانصراف من غزوة «حُنين» وقبل تقسيم الغنائم ، وبعد أن اشتد الحصار على المشركين نزلوا أرسالا[١] فأسلموا ، ورجع الرسول (ﷺ) من هوازن وثقيف ومعه الأسارى والغنائم ، فأتاه وفد «هوازن» «بالجعرانة» بالقرب من مكة وقالوا له : **يارسول الله ، قد أصابنا من الأمر ما تعلم فامنن علينا منّ الله عليك** فخيرهم الرسول (ﷺ) قائلا لهم :

أبناؤكُمْ ونساؤكُم أحبُّ اليكُمْ أم أمْوَالُكُم ؟! فقالوا : **نساؤنا وأبناؤنا أحبُّ الينا من أموالنا** ، فقال رسول الله (ﷺ) : «**ما كان لِى ولِبَنِى عبدِ المطَّلِبِ من نسائِكُم وأبنائكم فهو لَكُمْ ، وإذا صَلَّينا الظهرَ بالناس فسَلُونى أمرَكُم**» فلما صلى سألوه فى أمرهم ، فأمر

---

(١) أى جماعات .

الرسول (ﷺ) بردِّ نسائهم وأبنائهم ، كما قسم ما أفاءه الله عليه من الأموال على المقاتلين من المسلمين ، ومن بين من أعطاهم من أعطاه ليتألف قلبه للإسلام ولم يعط الأنصار شيئا فوجدوا وجْدًا شديدا ، حتى جاء سعد بن عُبادة وهو من الأنصار فقال : **يارسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا فى أنفسهم** ، فقال النبى (ﷺ) : «**إذن فاجْمَعْهُمْ إلىَّ**» فخرج سعد ونادى فى الأنصار : **أن ائتوا رسول الله** (ﷺ) ، فحمدَ الله وأثنى عليه ثم قال : «**يا معشر الأنصار ، بلَغَنِى انَّكُمْ تجدون علىَّ فى انفسكم ألم آتكم ضلالا فهدَاكُمُ الله بِى ، وعالةً فأغناكم الله ، وأعداء فألَّف الله بين قلوبِكُمْ ، فقالوا : بلى ، الله ورسولهُ أمنُّ وأفضَلُ** فقال لهم : «**ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟**» فقالوا : بماذا نُجيبُك يارسول الله ؟! ولرسوله المنّ والفضل - **فقال** رسول الله (ﷺ) : «**أما والله لو شِئتُم فَلَصُدِّقْتُمْ وصَدَقْتُم : أتيتنا مكذَّبا فصدَّقناك ، وجئتنا مخذُولا فنصرنَاك ، وطريدًا فآويتَاك ، وعائلاً فأغنيناك ، أوجدتم علىَّ يا معشر الأنصار فى أنفُسِكُم لشَىءٍ من الدنيا أعطيتُه لقَوْمٍ أتألَّف به قلوبهم لِيُسْلِمُوا ووكلتكُم إلى إسْلاَمِكُمْ؟! ألا تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ أن يَرْجِعَ الناسُ بالشاءِ والبَعِيرِ وترجِعُونَ أنتم برسولِ الله** (ﷺ) ؟! ..

فوالذى نَفْسُ محمدٍ بيده لولا الهجرةُ لكنتُ امرءًا من الأنصارِ ولو سَلَكَ الناسُ شِعْبًا وسَلَكَتِ الأنصَارُ شِعْبًا لسَلَكْتُ شِعْبَ الأنصارِ ، اللهم ارحم الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ وأبناءَ أبناءِ الأنصار»

فبكى القوم حتى اخضلَّت لحاهم وقالوا : **رضينا برسول الله** (ﷺ) **قسما وحظا** ، ثم انصرف الرسول (ﷺ) عقب هذا خارجا محرما بالعمرة ودخل مكة وأدى العمرة ثم عاد إلى المدينة .

غَـزْوَةُ «تَبُــوك»

كانت غزوة «تبوك» بعد الانصراف من حصار الطائف والإقامة فى المدينة ، وخرج الرسول (ﷺ) إلى الروم فى هذه الغزوة فى السنة التاسعة وهى آخر الغزوات التى غزاها (ﷺ) بنفسه ، وسببها أنه بلغ المسلمين أن الروم جمعت جموعها ووصلت الى أرض «البلقاء» فندب النبى (ﷺ) الناسَ إلى الخروج ، وكان عدد جيش الروم أربعين ألف مقاتل وكان عدد المسلمين يقارب ثلاثين ألفا ، وكان الوقت حارًّا حرارة شديدة ، وكان الناس يحبون أن يقيموا فى ثمارهم حيث طابت الثمار وكان رسول الله (ﷺ) إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها أى كنىَّ بغيرها أخذًا فى الحيطة والحذر ولأن الحرب خدعة إلا هذه الغزوة فإنه حدَّدها وبيَّنها ، لبعد المسافة والمشقة وقُوَّة العدو .. وتأخر الجد بن قيس من بنى سلمة فى هذه الغزوة مدَّعيا أنه يخشى ألا يصبر إذا رأى نساء بنى الأصفر وهم الروم فاستأذن فى التخلّف وكان متهما بالنفاق ، فلما استأذن فى البقاء مع أنه كان قويا وغنيا أذن الرسول (ﷺ) له وأعرض عنه ، فنزل فى شأنه قول الله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٤٩) [1] .

(١) سورة التوبة : (٤٩) .

وحاول بعض المنافقين أن يثبطوا عزائم المسلمين فى الخروج قائلين لهم : **لا تنفروا فى الحر** ، فنزل قول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾(١) .

وحث رسول الله (ﷺ) المسلمين على الإنفاق وأعلن عليهم أن من جهَّز جيش الْعُسْرَةِ فله الجنة فتسابقوا فى البذل والإنفاق ، حتى إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه جاء بكل ماله وكان أربعة آلاف درهم فسأله الرسول (ﷺ) : **«هل أبقيت لأهلك شيئا ؟»** فقال : (رضى الله عنه) : **«أبقيت لهم الله ورسوله»** ، وجاء سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه) بثلاثمائة بعير وبألف دينار ووضع الدنانير فى حجر رسول الله (ﷺ) فيسُرّ الرسول (ﷺ) بها ويدخل يده فيها يقلبها ويقول : **«اللهم ارْضَ عن عثمان ، فإنى عنه راض»** ، ويقول : **«ما على عثمانَ ما عَمِلَ بَعْدَ اليومِ»** .

وجاء سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وقسم ماله نصفين أتى بنصفه إلى رسول الله (ﷺ) وأمسك لأهله النصف ، فقال له النبى (ﷺ) : **«بارك الله لك فيما أنفقت وفيما أمسكت»** .

وجاء إلى رسول الله (ﷺ) البكّاءون وهم الذين طلبوا من رسول الله (ﷺ) ما يحملهم عليه من الإبل ليخرجوا معه ، فقال لهم الرسول (ﷺ) : **«لا أجدُ ما أحمِلُكُمْ عليه»** فانصرفوا باكين ، فسمَّوا

---

(١) سورة التوبة : (٨١) .

بالبكّائِين ، ذهبوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ..

وأما أبو خيثمة فقد روى[١] الطبراني وابن إسحاق أن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله (ﷺ) بعدة أيام إلى أهله فى يوم حار فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى بستان له قد رشّت كل واحدة منهما عريشها وبرّدت له ماء فيه وهيأت له فيه طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وَما صنعتا له ، فقال : **رسول الله (ﷺ) فى الشمس والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله يقيم ؟! ما هذا والله بالنّصف** ، ثم قال : **والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله (ﷺ)** فهيأتا له زادا ثم قدّم ناضحه فارتحله وخرج فى طلب رسول الله (ﷺ) حتى أدركه حين نزل «تبوك» ولما دنا أبو خيثمة من المسلمين قالوا : هذا **راكب على الطريق مُقْبِلٌ** فقال رسول الله (ﷺ) : **كن أبا خيثمة**» فقالوا **يارسول الله** ، **هو والله أبو خثيمة وسار الرسول (ﷺ)** ، **وتخلف عنه ثلاثة هم من صالحى المسلمين : كعب بن مالك الشاعر من بنى سلمة ومُرارة بن ربيعة ويقال ابن الربيع من بنى عمرو بن عوف وهلال بن أمية الواقفى فلم يعلموا بخروج الرسول (ﷺ) الا بعد أن غادر المدينة وعسكر «بثنيّة الوداع» كل منهم قال : سألحق برسول الله (ﷺ) غدا** ، حتى فاتهم اللحاق

---

(١) رواه الطبراني والواقدى وابن إسحاق .

به فلما افتقدهم الرسول (ﷺ) بعد يوم أو يومين وقيل له تخلفوا ، عجب من ذلك وعز عليه لأنه كان يعرف إيمانهم وفضلهم .

ورجع عبد الله بن أُبَىّ بجماعة من المنافقين ، وخلَّف رسول الله (ﷺ) على بن أبى طالب على أهله ، فقال المنافقون : **استثقله** ، فذكر ذلك على رضى الله عنه لرسول الله (ﷺ) ، فقال : «**كذبوا إنما خَلَّفْتُكَ لمَا تَرَكْتُ وَرَائِى فارْجِعْ فاخْلُفْنِى فى أهْلِى وأهلِكَ فأنتَ مِنىَّ بمنزلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى إلا أنه لا نبىَّ بَعْدِى**» .

ومرّ الرسول (ﷺ) على «حِجْر ثمود» (مدائن صالح) فنهى المسلمين عن الوضوء من بئر «ثمود» كما نهاهم أن يعجنوا خبزهم بمائها ، ولما قيل له : **إن قومًا عجنوا منه أمر أن يطرح علفا للإبل** ، والسبب فى هذا أن هذه المياه كان مغضوبا على أهلها وهم ثمود قوم صالح (عليه السلام) وكان من التوجيه النبوى : «**إذا مَرَرْتُمْ بأَرْضِ الظلَمَةِ فأسْرِعُوا**» وعطش الناس فى هذه الغزوة عطشا شديدا ، فدعا الرسول (ﷺ) ربه سبحانه وتعالى فأرسل عليهم سحابة ارتووا منها ورووا بها الإبل وأخذوا حاجتهم .

ولما وصل الرسول (ﷺ) إلى «تبوك» خرج أهلها وصالحوه وأعطوه الجزية ورجع إلى المدينة بعد إقامته فى تبوك بضع عشرة ليلة .

وأما الثلاثة الذين تخلَّفوا عن هذه الغزوة وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن ربيعة ، وهلال بن أمية فقد نهى الرسول (ﷺ) عن كلامهم من بين من تخلّف عنه ، فاجتنبهم الناس ، وأمسكوا عن

كلامهم خمسين يوما تقريبا وقد تحدث كعب عن موقفه هذا - كما روى حديثه البخارى ومسلم ومما جاء فيه قوله : «... **ولما قيل إن رسول الله (ﷺ) قد أقبلَ زاحَ عَنِّى الباطل وأجمعت أن أصدقه ، فجئتهُ ، فلما سلَّمْتُ عليه تبسَّم تبسُّم المغضب ، ثم قال : «تعَالَ» فجئت أمشى حتى جَلَسْت بين يَدَيْهِ فقالَ لى : «ما خلَّفَك ؟ ألم تكُنْ قد ابتعت ظهرَكَ ؟! فقلت : بلى إنى والله لو جلست عند غيرك من أهلِ الدنيا لرأيت أن سأخرج من سَخَطه بعُذْر ولقد أعْطِيتُ جَدَلاً ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدَّثْتُكَ اليوم حديث كَذِبٍ ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك عَلَيَّ ولئن حدثتُك حديثَ صِدْق تَجدُ عليّ فيه إنى لأرجو فيه عَفْوَ الله ، والله ما كان لى من عذر والله ما كنت قط أقْوىَ ولا أيْسَرَ مِنِّى حين تخلفَّتْ عنكَ ، فقال رسول الله (ﷺ) «أما هذا فقد صَدَقَ فقم حتى يَقْضِيَ الله فيك ..»** إلى أن قال : **فبينا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكر الله ﴿حَتَّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنفُسُهُمْ﴾ سمعت صوت صارخ أوفى على جبل «سلع» بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء الفرج ، وآذن رسول الله (ﷺ) بتوبة الله علينا** حين صلى صلاة الفجر .. وانزلت توبته وتوبة إخوانه من فوق سبع سماوات حيث قال الله عز وجل : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ

مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1]

وكانت هذه الغزوة فى السنة التاسعة آخر الغزوات وهى سنة الوفود ، لأن الناس بعد فتح مكة والانتهاء من غزوة تبوك أيقنوا أنهم لا قبل لهم بحرب رسول الله (ﷺ) ، فجعلوا يفدون إليه ويدخلون فى دين الله أفواجا .

وهكذا كانت غزوة «تبوك» آخر غزوات الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) .

وهذا العام سمى «بعام الوفود» ، لأنه بعد فتح مكة والانتهاء من غزوة «تبوك» أسلمت «ثقيف» ، وجعل الناس يفدون إلى رسول الله (ﷺ) ، ويدخلون فى الإسلام ، وأيقنوا أنهم لا قِبَل لهم بحرب الإسلام وأنه على حق ، فدخلوا طائعين مقتنعين بالإسلام ، ونزل فى هذه السنة قول الله تعالى :

---

(١) سورة التوبة : (١١٧ ١١٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾

وفـــد عبـــد القيـــس

قال البخارى : حدثنا على بن الجعد قال : أخبرنا شعبة :

عن أبى جمرة قال : كنت أقعد مع ابن عباس . يجلسنى على سريره فقال : أقم عندى حتى أجعل لك سهما من مالى ، فأقمت معه شهرين ثم قال : إن وفد عبد القيس ، لما أتوا النبى (ﷺ) قال : « **مَنِ القومُ ، أو مَنِ الوفد** » ؟

قالوا : ربيعة ، قال : « **مَرحبًا بالقومِ ، أو بالوفدِ ، غير خَزَايا وَلاَ نَدَامَى** » فقالوا : يا رسول الله ، إنا لا نَسْتَطِيعُ أن نأتيك إلا فى شهر الحرام ، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة ، وسألوه عن الاشربة . فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع . .

أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : **أتدرُونَ مَا الإيمانُ بالله وَحده** ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : **شَهَادَةُ أن لاَ إلَه إلاَّ الله . وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإقامُ الصَّلاة وَإيتاء الزَّكاة ، وصِيام رَمَضَان ، وأن تُعطُوا مِنَ المغنم الخمس .**

ونهاهم عن أربع : **الحنتم**[١] **والدباء**[٢] **والنقير** [٣] **والمزفت وربما قال المقير**[٤] ، وقال : **احفظوهن ، وأخبروا بهن من وراءكم** »

لقد حقق الله تعالى النصر والفتح للدعوة الإسلامية ، بعد جهاد طويل ، جاهد فيه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وجاهد أصحابه والمسلمون خير جهاد ، فدعوا للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، بالنفس وبالمال وبالدعوة والكلمة ، حتى تم النصر والفتح من الله العزيز الحكيم .

ولما تم فتح مكة ، وفرغ رسول الله (ﷺ) من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، ضربت إليه وفود العرب من كل مكان ، قال ابن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة أن ذلك فى سنة تسع ، وأنها كانت تسمى سنة الوفود ، حيث وفد على رسول الله (ﷺ) وفود كثيرة ، يتعلمون منه ، ويأخذون عنه ، ويدخلون فى دين الله أفواجا ..

ومن هذه الوفود : وفد عبد القيس ، وكانت مساكنهم بالبحرين وما والاها من أطراف العراق . ووفد عبد القيس هؤلاء تقدموا قبائلهم للمهاجرة إلى رسول الله (ﷺ) ، وكانوا أربعة عشر راكبا ، الأشج العصرى رئيسهم .. وهو المنذر بن عائذ ، ومنهم منقذ بن حيان .. وروى ابن منده من طريق هود العصرى عن جده لأمه

---

(١) **الحنتم** : جرار خضر .   (٢) **الدباء** : القرع اليابس أى الوعاء منه .
(٣) **النقير** : جذع ينقر وسطه .   (٤) **المقير** : المطلى بالقار وهو الزفت .

قال : بينما رسول الله (ﷺ) يحدث أصحابه ، إذ قال لهم : سيطلع لكم من هذا الوجه ركب هم خير أهل المشرق ، فقام عمر ، فلقى ثلاثة عشر راكبا .. » فيجمع بين هذه الرواية والسابقة بأن يكون أحد المذكورين غير راكب أو مرتدفا . وأما ما رواه الدلابى وغيره من طريق أبى خيرة الصباحى قال : « **كنت فى الوفد الذين أتوا رسول الله (ﷺ) من وفد عبد القيس وكنا أربعين رجلا ...** » فيجمع بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى ، بأن الثلاثة عشر كانوا رؤوس الوفد ، ولهذا كانوا ركبانا ، وكان الباقون أتباعا ..

أما عن سبب وفودهم : فهو أن منقذ بن حيان أحد بنى غنم ابن وديعة . كان متجره إلى يثرب فى الجاهلية . فشخص إلى يثرب ، بملاحف وتمر من هجر ، بعد هجرة النبى (ﷺ) ، فبينا منقذ بن حيان قاعد ، إذ مر به النبى (ﷺ) فنهض منقذ إليه فقال النبى (ﷺ) : **أمنقذ بن حيان ، كيف جميع هيئتك وقومك** ؟ ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل ، يسميهم بأسمائهم ، فأسلم منقذ ، وتعلم سورة الفاتحة واقرأ باسم ربك ، ثم رحل قبل هجر ، فكتب النبى (ﷺ) معه إلى جماعة عبد القيس كتابا ، فذهب به ، وكتمه أياما ، ثم اطلعت عليه امرأته ، وهى بنت المنذر بن عائذ ، والمنذر هو الأشج ، سماه رسول الله (ﷺ) به لأثر كان فى وجهه .. وكان منقذ (رضى الله عنه) يصلى ويقرأ ، فأنكرت امرأته ذلك ، فذكرته لأبيها

المنذر فقالت : أنكرت بعلى منذ قدم من يثرب ، إنه يغسل أطرافه ويستقبل الجهة - تعنى القبلة - فيحنى ظهره مرة ، ويضع جبينه مرة ، ذلك ديدنه منذ قَدِمَ ، فتلاقيا ، فتجاريا ذلك ، فوقع الإسلام فى قلبه ، ثم سار الأشج إلى قومه عصر ومحارب بكتاب رسول الله (ﷺ) ، فقرأه عليهم فوقع الإسلام فى قلوبهم وأجمعوا على السير إلى رسول الله (ﷺ) ، فسار الوفد ، فلما دنوا إلى المدينة ، قال النبى (ﷺ) لجلسائه : « **أَتَاكُم وَفدُ عَبدِ القَيسِ ، خَير أَهلِ المشرِقِ ، وفيهم الأَشجُّ العصرى غير ناكثين ولا مبدلين ولا مرتابين** » . فلما أتو النبى ﷺ قال : **مَنِ القومُ أو مَنِ الوفدُ** ؟ قالوا : ربيعة ، قال : « **مَرحبًا بالقومِ أو بالوفدِ ، غَير خَزَايا ولاَ نَدَامَى** » .. أى أنهم لا يصيبهم الخزى فقد أسلموا طوعا من غير حرب أو سبى يخزيهم ويفضحهم ، وإذا كان هذا شأنهم فى الدنيا ، فإنهم فى الآخرة لا تلحقهم الندامة ولا الحسرة ، وفى هذا القول النبوى الحكيم بشرى لهم بالخير العاجل ، والآجل ، لأن الندامة إنما تكون فى العاقبة فإذا انتفت ثبت ضدها . ثم وضحوا لرسول الله (ﷺ) موقفهم ، وأنهم لا يستطيعون الوصول إليه إلا فى شهر حرام من الأشهر الحرم وهى : **ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب** وذلك خوفا من أعدائهم الكفار ، وفى رواية الإمام مسلم : « **وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر فلا نخلص إليك إلا فى شهر حرام ، فمُرنا بأمر نعمل به وندعو إليه من وراءنا** » وكان أعداؤهم لا يتعرضون إليهم فى هذه

الأشهر ، كما كانت عادة العرب من تعظيم الأشهر الحرم ، وامتناعهم من القتال فيها ، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع ، أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : **أَتَدْرونَ مَا الإِيمَانُ بالله وَحدَهُ ؟** قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : **شَهَادَةُ أَن لاَ إِلَهَ إلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاءِ ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ ، وَأَن تُعطُوا مِنَ المغنَمِ الخُمسَ** ، ولكننا إذا نظرنا إلى الأمور التى أمر بها وجدناها خمسا لا أربعا ، وأظهر ما أجيب به عن ذلك أنه أمرهم بالأربع التى وعدهم بها ثم زادهم خامسة وهى : أداء الخمس ، لأنهم كانوا مجاورين لكفار مضر فكانوا أهل جهاد وغنائم . وقيل : أنه لم يذكر الحج فى هذا الحديث ، لكونه لم يكن نزل فرضه . « **ونهاهم عن أربع عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت وربما قال المقير** .. » **أما الدباء** : فهو القرع اليابس أى الوعاء منه . **وأما الحنتم فأقوى الآراء فيه أنه** : جرار خضر . **وأما النقير** : فهو جذع ينقر وسطه . **وأما المقير** : فهو المطلى بالقار وهو الزفت والمراد النهى عن الانتباذ فى هذه الأربعة بأن يجعل فى الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب ، وخصت هذه بالنهى لأنه يسرع إليها الإسكار فيها ، فيصير حراما نجسا وتبطل ماليته .. وجاء فى بعض الروايات بيان ما يترتب عليه من الإسكار ، وما يترتب على الإسكار من المفاسد قالوا : يا نبى الله ما علمك بالنقير ؟ قال : بلى جذع تنقرونه فتقذفون فيه من القطيعاء ، قال سعيد : أو قال من التمر ثم تصبون فيه من الماء

حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى أن أحدكم أو أن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف ، قال : وفى القوم رجل أصابته جراحة كذلك ، قال : وكنت أخباها حياء من رسول الله (ﷺ) .

ومعلوم أنه – صلوات الله وسلامه عليه – لم يستوعب لهم جميع الأوامر وجميع النواهى ، وذلك لأنهم سألوه أن يخبرهم بما يدخلون به الجنة فاقتصر لهم على ما يمكنهم فعله فى الحال ولم يقصد إعلامهم بجميع الأحكام التى تجب عليهم فعلا وتركا . واقتصر فى المنهيات على الانتباذ فى الأوعية مع أن فى المنهيات ما هو أشد فى التحريم من الانتباذ ، لكن اقتصر عليها . لكثرة تعاطيهم لها . ومن هذه القصة يستنبط :

أن الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل ويستنبط وجوب أداء الخمس من الغنيمة وأنه من الإيمان . وفى القصة – كذلك – : النهى عن الانتباذ فى هذه الأوعية قال العلامة ابن القيم : وهل تحريمه باق أو منسوخ ؟ على قولين . وهما روايتان عن أحمد ، والأكثرون على نسخه بالحديث الذى رواه مسلم :
« .. **وَكُنتُ نَهَيتُكُم عَنِ الأَوعِيَةِ فَانتَبِذُوا فِيمَا بَدَا لَكُم وَلاَ تَشرَبُوا مُسكِرًا** » ومن قال بأحكام أحاديث النهى وأنها غير منسوخة قال : هى أحاديث تكاد تبلغ التواتر ، فى تعددها ، وكثرة طرقها ، وحديث الإباحة فرد فلا يبلغ مقاومتها ، وسر المسألة : أن النهى عن الأوعية المذكورة من باب سد الذرائع ، إذ الشراب يسرع إليه الإسكار فيها .

وفى القصة مدح صفتى الحلم والأناة ، وأن الله يحبهما وضدهما الطيش والعجلة ، وهما خلقان مذمومان مفسدان للأخلاق والأعمال .. واستنباط مدح الحلم والأناة ، مأخوذ من بعض الروايات الأخرى ، فعند مسلم :

« وقال نبى الله (ﷺ) لأشج عبد القيس : **إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ : الحِلْمُ والأناة** » وسبب قول النبى (ﷺ) ذلك له : ما جاء فى حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة ، بادروا إلى النبى (ﷺ) وأقام الأشج عند رحالهم ، فجمعها ، وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ، ثم أقبل إلى النبى (ﷺ) فقربه النبى (ﷺ) وأجلسه إلى جانبه ثم قال لهم النبى (ﷺ) : « **تُبَايِعُونَ عَلَى أَنْفُسِكُم وَقَوْمِكُم** » فقال القوم : نعم . فقال الأشج :

يا رسول الله ، إنَّك لم تزاول الرجل عن شيء أشد عليه من دينه نبايعك على أنفسنا ، ونرسل من يدعوهم فمن اتبعنا كان منا ، ومن أبى قاتلناه ، قال : « **صَدَقْتَ ، إن فِيكَ خَصْلَتَين** » الحديث .. **فالأناة على هذا هى** : تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل ، والحلم : هذا القول الذى قاله الدال على صحة عقله ، وجودة نظره للعواقب .

ولا يخالف هذا ما روى أنه لما قال رسول الله (ﷺ) للأشج :

إنَّ فِيكَ خصلتَينِ .. قال: يا رسول الله ، كانا فىَّ أم حدثا ؟ قال : **بل قديم** ، قال : قلت : الحمد لله الذى جبلنى على خُلقَين يُحِبُّهما .

كما يستنبط من القصة : وفادة الرؤساء والأشراف إلى الأئمة عند الأمور المهمة ، وتقديم الاعتذار بين يدى المسألة وفيها : بيان مهمات الإسلام وأركانه ما سوى الحج ، وفيها استعانة العالم فى تفهم الحاضرين والفهم عنهم ببعض أصحابه كما فعله ابن عباس (رضى الله عنهما) . وفى القصة أيضا : جواز الثناء على الإنسان فى وجهه إذا لم يخف عليه فتنة بإعجاب ونحوه ، وأما النهى عن المدح فى الوجه ، فهو فى حق من يخاف عليه الفتنة .

وفى بعض روايات القصة من التفصيل ما يفيد وصف الأشج بالحلم والأناة : ثم نزل الأشج فعقل راحلته وأخرج عيبته - وهى التى يضع فيها ثيابه وزاده - ففتحها فأخرج (ثوبين) أبيضين من ثيابه فلبسهما ، ثم أتى رواحلهم فعقلها وجمع متاع القوم ثم جاءَ يمشى حتى أخذ بيد رسول الله (ﷺ) فقبلها فقال رسول الله (ﷺ) : « **يا أَشَجُّ ، إن فيك خصْلتَينْ يُحِبُّهما الله عزَّ وجلَّ ورسولُهُ : الحِلْمُ والأناة** » ، فقال : يا رسول الله ، أنا تخلقتهما أوجبلنى الله عليها ؟ فقال : « **بَلِ الله جَبلَكَ عَلَيهمَا** » . قال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله .

وهكذا نرى أن هذه القصة قد اشتملت على العديد من الأحكام والحكم ، والمأمورات والمنهيات ، والتوجيهات السديدة التى تأخذ بأيدى الناس إلى صراط ربهم المستقيم ، وتجنبهم طرق الغواية والضلال ، وهذه التوجيهات التى زوَّدهم بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لها أهميتها وأثرها فى بناء حياتهم ، واستقامة أمرهم ، ولهذا قال لهم رسول الله (ﷺ) : « **احفَظُوهُنَّ وَأَخِبرُوا بِهِنَّ مَن وَرَاءكم** ».. إنها دعوة الإسلام الصادقة ، التى تفيض بها قلوب المؤمنين المخلصين ، وتنطلق داعية إلى الله على هدى وبصيرة . لتفوز برضوان من الله ، وذلك هو الفوز العظيم .

كما اشتملت القصة على أن الله تعالى يحب من عبده ما جبله عليه من خصال الخير ومكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، كالحلم والأناة ، والشجاعة والذكاء ، وغير ذلك لاسيما إذا سخَّر مواهبه فى البر والتقوى ، والتعاون والمعروف والدعوة إلى الخير والإسلام .

قــدوم ضمــام بن ثعلبــة

من قصص السيرة الشريفة ، قصص الوفود ، الذين كانوا يقدمون على الرسول (ﷺ) فرادى وجماعات ، قال الإمام البخارى رحمه الله :- حدثنا عبد الله بن يوسف قال : حدثنا الليث عن سعيد هو المقبرى عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر ، أنه سمع أنس بن مالك يقول : بينما نحن جلوس مع النبى (ﷺ) فى المسجد ، دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم : أيُّكم محمد ؟ والنبى (ﷺ) متكىء بين ظهرانيهم . فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكىء فقال له الرجل : ابن عبد المطلب ، فقال له النبى (ﷺ) : **قد أَجبتُك** . فقال الرجل للنبى (ﷺ) : إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة ، فلا تجد علىَّ فى نفسه ، فقال : **سَل عمَّا بَدَا لَكَ** . فقال : أسألك بربك ، ورب من قبلك ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : **اللَّهُمَّ نَعَم** ، قال : أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة ؟ قال : **اللَّهُمَّ نَعَم** . قال : أنشدك بالله الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال : **اللَّهُمَّ نَعَم** ، قال : أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ فقال النبى (ﷺ) : **اللَّهمَّ نَعَم** . فقال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد .

لقد كان قدوم ضمام ، فى سنة تسع ، كما جزم بهذا ابن إسحاق وأبو عبيدة ، وغيرهما . وكان وفوده بناء على رغبة بنى سعد بن بكر الذين أرسلوه إلى رسول الله (ﷺ) . وصادف مجيئه وسؤاله هوى فى نفوس المسلمين . حيث أنهم نهوا عن سؤال ما لا ضرورة إليه ، فكان يعجبهم أن يجىء الرجل من أهل البادية العاقل ، فيسأل الرسول (ﷺ) وهم يسمعون .. ولما جاء ضمام سأل عن الرسول (ﷺ) قائلا : أيكم محمد ؟ والنبى (ﷺ) متكىء بين ظهرانيهم ، فقالوا له : هذا الرجل الأبيض المتكىء ، ولم يكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أبيض صرفا ، وإنما المراد : الأبيض المشرب بحمرة ، كما ورد فى صفته (ﷺ) أنه لم يكن أبيض ولا آدم .

أما أسئلة الرجل : فقد اشتملت على السؤال عن عموم رسالته ، وذلك فى قوله : الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ ثم عن الصلوات الخمس ، ثم الزكاة .. وفى رواية الإمام مسلم : سؤاله عن الحج وفيها كذلك ما يدل على حسن سؤاله وترتيبه ، ومنطقه وعقله ، حيث سأل أولا عن صانع المخلوقات من هو ؟ ثم أقسم عليه به أن يصدقه فى كونه رسولا للصانع ، ثم لما وقف على رسالته وعلمها ، أقسم عليه بحق مرسله وهذا الترتيب فى الأسئلة يدل على تفتح عقليته ، وقوة منطقه وحكمته . ففى رواية مسلم أنه قال : يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : **صَدَقَ** ، قال :

فمن خلق السماء ؟ قال : الله ، قال : فمن خلق الأرض ، قال : الله ، قال : فمن نصب هذه الجبال ؟ وجعل فيها ما جعل ، قال : الله ، قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك ؟ قال : **نعم** .

لقد وجه الرجل أسئلة تتصل بكتاب الكون المفتوح من أرضه وسمائه وجباله ، سائلا عن خالقها وصانعها ، مستدلا من الصنعة على الصانع ، ومن الخلقة على الخالق ، مصدقا لما أجابه به الرسول (ﷺ) ، وهذه الأسئلة احتوت أدلة كونية ، شاهدة بوجود الله ووحدانيته وقدرته وعظمته ، وأنه الذى خلق فسوى وقدَّر فهدى ..

وهى أدلة واضحة وضوح الشمس ، ويمكن لكل من كان بعيدا عن الإسلام أن يستدل بها على ربه ، وأن يدع المكابرة والمراوغة ، فهى أدلة مبثوثة فى الكون ، شاهدة بوحدانية الخالق العظيم :

وفِى كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ .. تَدُلُّ على أَنَّهُ الوَاحِدُ .

أما قول الرجل : أيكم محمد ؟ فقد قيل : إنما لم يقل الرسول (ﷺ) له : نعم ؛ لأنه لم يخاطبه بما يليق بمنزلته من التعظيم ، لا سيما مع قوله تعالى :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[1]

---

(١) النور : ٦٣ .

وقال الحافظ ابن حجر : والعذر عنه - إن قلنا أنه قدم مسلما أنه لم يبلغه النهى ، وكانت فيه بقية من جفاء الأعراب وقد ظهرت بعد ذلك فى قوله : « **فمشدد عليك فى المسألة** » .

ولما أجابه رسول الله (ﷺ) عما سأل عنه وشفى قلبه بتثبيت علمه وعقيدته قال الرجل : **آمنتُ بما جئتَ به ، وأنا رسول من ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبه أخو بنى سعد** . وفى رواية أنه قال : « **وسَأُؤَدِّى هَذِه الفَرَائِضَ ، وأجتنبُ ما نهيتَنِى عنه ، لا أزيد ولا أنقص** » ثم انصرف راجعا . فقال رسول الله (ﷺ) حين ولى : « **إن يَصدُق ذُو العُقَيصَتَين يَدخُل الجَنَّة** » وكان ضمام رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين ، ثم أتى بعيره ، فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا عليه ، وكان أول ما تكلم به أن قال : **بئست اللات والعزى** ، فقالوا : صه يا ضمام ، اتق البرص والجنون والجزام ، قال : **ويلكم ، إنهما ما يضران ولا ينفعان ، إن الله بعث رسولا ، وأنزل عليه كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وإنى قد جئتكم من عنده بما أمركم به ، ونهاكم عنه ، فو الله ما أمسى فى اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما** » رواه ابن إسحاق وقال : **فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضمام بن ثعلبة** .

لقد كان الرجل صوت حق وصدق إلى قومه ، حيث حمل لهم

مشعل النور والمعرفة ، بعد أن استقى ينابيع الحكمة والهداية من رسول الله (ﷺ) ، فثار على الأصنام والمعبودات الباطلة ونشر دعوة الحق فى ربوع قومه حتى تفيئوا جميعا ظلال الإسلام ، وسعدوا به ، ورضوا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد (ﷺ) نبيًّا ورسولا .

وقد استدل علماء السنة بهذه القصة على القراءة على العالم فإن ضماما قال للنبى (ﷺ) : **آلله أمرك أن تصلى الصلوات قال : نعَم** ، فهذه قراءة على النبى (ﷺ) أخبر ضمام قومه بذلك فأجازوه وفى القصة أيضا : العمل بخبر الواحد ، وتأكيد الدعوة إلى دعائم الإسلام من الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج .

محتويات الكتاب

رقم الإيداع : ٩٤/٢٩٥٢
ترقيم دولى : ٠ - ٠١٩٢ - ١٤ - ٩٧٧ ISBN



دراسة تحليلية فى ضوء الكتاب والسنة لأشرف سيرة فى الوجود إنها السيرة النبوية العطرة ويتناول هذا الكتاب العهد المدنى وقد تم طبع الجزء الأول للعهد المكى وتتميز هذه الدراسات بتوثيق الروايات واستنباط الحكم والدروس .

والله ولى التوفيق

